الهاوية

دار حروف منثورة للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى

الكتاب: الهاوية

المؤلف: داود سلمان الشويلي

تصنيف الكتاب: رواية

تصميم الغلاف: فريق الدار

تنسيق داخلي: فريق الدار

مراجعة لغوية: محمد إمام

رقم الإيداع: ٢٧٧٧٥ /٢٠٢٣م

الترقيم الدولي: ٩٧٨٩٧٧٦٨٦٧٦٢٨

مؤسس الدار

مروان محمد

Website: https://horofbooks.com

Fan page: http://facebook.com/herufmansoura

Email: herufmansoura٢٠١١@gmail.com

هاتف جوال: ٠٠٢٠١١١٣٠٠٦٢٩٦ – هاتف جوال: ٠٠٢٠١٠٦٤٠٥٤٩٩٥

دار حروف منثورة للنشر والتوزيع لا تتحمل أي مسئولية اتجاه المحتوى الذي يتحمل مسئوليته الكاتب وحده.

رواية

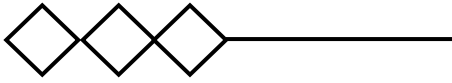

الـهاويـة

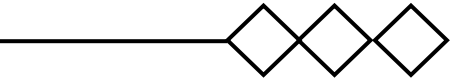

داود سلمان الشويلي

الإهداء

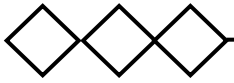

إلى روح ابني الشهيد النقيب حسام، وإلى روح ابنتي ـ شهيدة ولادة طفل ميت ـ الشابة "رسيل"، وإلى أحفادي: سيف الدين مهند، رسل مهند، نور الزهراء مهند، نبأ سيف، سبأ سيف، إسراء سيف، رفأ سيف، ملك ذو الفقار، تميم ذو الفقار، شهد بارق، جنى بارق، يمان صارم، حسام الدين صمصام.

وإلى أسباطي: نور الدين ضياء، فاطمة ضياء، قطر الندى ضياء، زين العابدين ضياء، زينب ضياء، مصطفى ميس، ديما ميس.

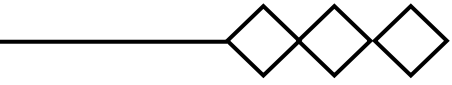

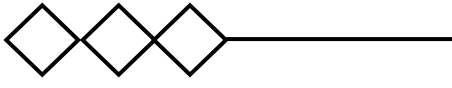

"هُناكَ رِجسٌ في المدينةِ؛ فَحَلَّ بِها الطّاعون".

(العرّافة تريسياس ـ أوديب ملكاً ـ سوفوكلس)

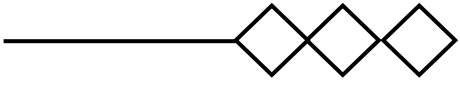

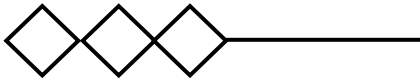

الكتاب الرابع*
من أيقظ قابيل؟؟!!
"الكابوس الذي تَخشَاه المَلائكة"

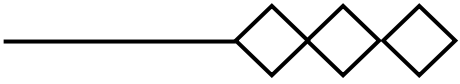

على سبيل التقديم

"يقول الكاتب التشيكي ميلان كونديرا: "على كلّ مَن يملك القَدر الكافي من الجنون ليستمر اليوم في كتابة الروايات، أن يكتبها بطريقة تجعل اقتباسها مُتعذّراً، وبعبارة أخرى، عليه أن يكتبها بطريقة تجعلها غير قابلة لأن تُروى".

نتساءل: هل بالإمكان تلخيص هذه الرواية لتُروَى شِفَاهِيّاً ؟ أم إنها رُويت شِفَاهِيّاً في الأصل، ومِن ثّم دُوّنَت؟

من هنا تبدأ الحكاية:

في أسطورة قرأناها في بعض أدبيات الفكر الديني، تَذكُر أنّ الله لم يعجبه قربان قابيل، وأعجبه قربان هابيل، فغضب قابيل لذلك، وقتل هابيل.

وأدبيات أخرى تَذكُر أنّ زوجة قابيل ـ وهي شقيقة هابيل ـ لم تكن جميلة كشقيقة قابيل التوأم التي تزوجها هابيل، فغضب قابيل لذلك، ولحل المشكلة بينهما، نصحهما والدهما، آدم، أن يقدّما قرباناً إلى الله، فقدّما قربانيهما، فتقبّل الله قربان هابيل، ولم يتقبّل قربان قابيل؛ فقتل قابيلُ هابيلَ.

هذه الأسطورة، ووفق الأسباب التي ذكرتها الأدبيات تلك، ما زالت من الناحية الجنسية على أقل تقدير، تعيش بيننا، تنبض بالحياة. ومن هذا المنطلق سأدوّن لكم حكاية جرت في حياتنا التي نعيشها، وهي حكاية، سأسميها رواية. لذا فأنا:

داود بن سلمان الشويلي أدوّن لكم ما سمعته من الصّبية (دنيا)، وبعدها منها عند شيخوختها وقبل أن تموت، إذ قالت:

ـ ها أنا ذا أروي لكم أحداثاً قديمة، أو سَمّها ما شئت؛ حكاية، سالفة[1] من سوالف جدّاتنا، حدوتة، قصة، رواية، قصة فيلم سينمائي، أو فيلم على اليوتيوب، أو ربما هي رؤيا في المنام في غرفة حارة بعد انقطاع التيار الكهربائي في حر الصيف اللاهب، بعد أن تعودنّا نحن البشر على أجهزة التكييف، فتترادف"الكوابيس" منطلقة من العقل الباطن. المهم أنني أنقل لكم ما شاهدته، أو تراءى لي في المنام الهادئ، أو القلق، حيث الكوابيس، على الرغم من أنها ليست رؤيا نبي لتكون صادقة كفلق الصبح، كما قالت السيدة عائشة عن رؤيا النبي: "فَكَانَ لا يَرَى رُؤْيَا إِلاَّ جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ". فأنا لست نبية، كما تقول (دنيا)، لأن المرأة لا تكون نبية، لا الآن ولا في أيّ زمان مضى، لأن الرجال وحدهم هم من يكونوا أنبياء، وقد احتكروا ذلك لهم، كما احتكرت الآلهة لها الخلود، فَحرمت البشرية منه، ومما قام به جلجامش عندما ترك الحية تأكل عشبة الخلود التي غامر في الحصول عليها، وكما حدث في الماضي. وقد قال الشاعر (عطارد التميمي) في النبية سجاح:

أَضحَت نَبيَّتُنا أُنثى نُطيفُ بها
وأَصْبَحتْ أَنبياءُ الله ذُكـــــرانا
فلَعْنَة اللهِ، رَبِّ النَّاسِ كلّـــهمُ
على سَجاحِ ومَنْ بالإفْكِ أَغْرانا

وتابعت (دنيا) القول:

أو إنّي سمعت هذه القصة من أحد وقد رواها كما تروي شهرزاد حكايات ألف ليلة وليلة.

واستمرت في حديثها قائلة:

---

(١) سالفة: شيء يحكى يخص السلف. أي حكاية عن الماضي.

ـ كان عام ٢١٠٠ للميلاد، العام الذي أصبح فيه عمري أنا وأخي التوأم (رياض) أبو حديبة المصاب بالحبسة الصوتية، فكان دائماً يلازمه الصمت، عشرة أعوام. في هذا العمر، وبعد أن أطفأنا شمعتنا العاشرة في الحفل الذي أقامه والدنا بهذه المناسبة، وفي العالم الافتراضي الذي يعرض أمامنا على الجدران، ومستلزمات البيت الأخرى، تراءت لي و(لرياض) سويًا هذه الرؤيا في منامنا، أو أنَّنا قد رأيّناها مشاهدة العين، أو ربما في فيلم، أو سمعناها من جدّتي العمياء المبحوحة الصوت، جدّة والدي، والتي لا تُجيب عن أسئلة والدنا بسبب غضبها عليه، وبعد أن وصلت إلى عمر لا يمكن أن نقول أن كلامها صادق، ولم نستطع أن نكذّبه، ربما حدث ذلك في الواقع، لا أعرف بالضبط.

وكان، أيّضاً، في عام ٢١٥٠ العام الذي غزت فيه العراق سربان الجراد وهي تأتي من الشرق، ولم تترك سنبلة حبوب إلّا والتهمها، العام هذا الذي أصبح فيه عمري ستين عاماً، وكنت على فراش الموت، رويت ما وقع من حوادث للبلد في الفترة التي تزوج فيها الأشقاء، أقصد (أنعم) و(أنعام). وقد أخذ هذا الجانب التغيّرات التي طفت على سطح المجتمع العراقي، فأدّى إلى انحلاله وفساده، ومن هذا الانحلال والفساد كان زواج الأشقاء كما يرى بعض أبناء المجتمع، وقد انتشر ذلك دون عقد شرعي، وكذلك بين أفراد العائلة الواحدة بين الإناث والذكور.

سنسمع هذه الرواية، الحكاية، السالفة، الفيلم، سمّه ما شئت، لا يهم، من أصحابها، أو الذين رووا عنهم بواسطة العنعنة، دون أن نجرح واحداً من الرواة، لأن الرواة ثقة، وصادقون، ولا غبار عليهم.

وتابعت القول عندما كانت صبية، أو عندما كانت في الستين من عمرها وقبل أن تموت:

- أنا لا أريد أن أكون أخرسَ مثل قهواتي المضيف لكي لا يسمع أيّ حديث يُقال في جلسات ذلك المضيف، أنا أريد أن أتحدث وبأعلى صوتي وأقول: يُحكَى أنَّ.....

***

استهلال سردي

إذا كنت، أيّها القارئ العزيز، على عجلة من أمرك، وتريد أن تعرف من أكون أنا، ومن أخي، وأبي، وأمي، وجدّي، وجدّتي، وماذا أحب، وماذا أكره، وكيف ولدت، وفي أيّ مكان، ومتى؟ فاعلم عزيزي القارئ اللبيب أنني ولدت في مدينة الناصرية التي يسميها أهلها، وكل من سكن العراق، أم الحضارات. الناصرية التي علّمت البشرية الحِرف، والعجلة، والقوانين،...إلخ، في العام ٢٠٩٠ أنا وأخي التوأم (رياض). من أبوين عراقيين بالولادة ـ أب عن جدّ حتى قطع النفس ـ.

إغراء قوي يدفعني إلى أن أكتب بضمير الغائب إلّا أنّ إغراء آخر يأخذ بتلابيبي لأن أكتب بضمير المتكلم، فهي حكايتي وأنا الذي يجب أن أرويها بكل أسرارها، وأمورها المعلنة وغير المخبوءة عن الآخرين، لذا سأسمح لقلمي أن يخط حكايتي كما حدثت بضمير المتكلم غير الخائف من أي جهة كانت، إذ إنّ ذاكرتي قوية ونشيطة منذ أن كنت صغيرة، ولا تحب لعبة الاستغماية التي يستخدمها الآخرون لاإخفاء ما يريدون إخفاءه، في حين يسهبون في جانب آخرليس بأهمية الجوانب التي يستخدمون فيها الاستغماية.

ذاكرتي النشطة هذه ستكون مثل رأس بصل ناضح في يد طباخة ماهرة تقشّره طبقة طبقة، فالأشياء تتزاحم في ذاكرتي تروم الخروج. أقول:

في يوم كان فيه النهار طويلاً وثقيلاً مثل أَنْهُر الصيف في محافظة جنوبية، ولدت أنا "دنيا"، ومعي أخي التوأم"رياض" بحدبته البارزة، كأنها تلّ صغير، من أب لم يتزوج بعد موت أُمّنا، وأم لم نرها أبداً، ماتت أثناء ولادتنا أنا وأخي، فظل والدي ـ

الرجل الطيّب ـ بلا زوجة حتى الآن، خوفاً علينا من زوجة الأب المفترضة.

كان والدنا إنساناً طيّباً، يحب جدّيه، ولا يكسر كلمة لهما، وينفذ ما يطلبانه منه. يحبنا نحن أولاده يتيمي الأم كما كنا نسمع منه أو من جدّتي....أمه. كان هادئ الطبع، نقي السريرة، لم يؤذِ أيّ إنسان طيلة حياته. والدنا من الناس الذين (يمشون جنب الحيط)[1]، ويخافون من ظلهم.

لنا جدّة، وهذا أولى طبقات رأس البصل، هي في الحقيقة جدّة والدنا، نحبها كثيراً، وتحبنا كثيراً أيّضاً. مبحوحة[2] الصوت، كأنَّها رجل يتكلم، بسبب مرض سرطان الحنجرة الذي أصابها قبل أن نولد بسنتين.

كرسيها الهزّاز الذي ورثته من والدة زوجها "أنعام"، لم تستعمله سوى مرات معدودة طيلة فترة امتلاكها له بعد موت "أنعام". كان زائداً عن الحاجة في غرفتها، فهل يبقى هكذا؟ كانت تتساءل مع نفسها دائماً، وكانت تردّد وتقول ستمتلكه "دنيا" بعد موتها، وقد امتلكته أنا كما قالت جدّتي، وتركته عند موتي وهو يتأرجح إلى الأمام وإلى الخلف.

هذه الجدّة إمرأة طيبة، خفيفة الظل، تحكي لنا الحكايات عن أجدادنا الأوائل. كانت مثل عين من الماء الزلال يروي الجميع دون أن ينضب. وكانت حكاياتها هي زادنا اليومي قبل أن نغفو وننام. وكان ذلك يستهوينا، ويستهوي والدنا، لأن بمقدوره أن يخلو بنفسه. أما أنا فدوري هو أن أنقلها لكم كما سمعتها من جدّتي هذه، والتي سمعتها هي الأخرى من جدّي....زوجها، أو

(١) يمشون جنب الحيط: مثل شعبي. أيّ يسير في جانب الجدار. لا يتدخل فيما لا يعنيه.

(٢) مبحوحة: في صوتها بحة.

التي وقفت هي عليها أثناء حياة أجدادنا. إذن الأخبار والذكريات التي سأحكيها لكم موثوقة من ناحية الرواية والدرايّة[١].

لم تتذمر جدّتي في يوم ما من جلوسنا معها والسماع لحكاياتها، ولم تتأفف عندما نعبث ببعض أغراضها، أو عندما نلعب سويًا عندما كانت تصلي، فنركب على ظهرها، ونجعل منها حصاناً لنا، ونضحك، وكانت هي تضحك معنا، وتطيل السجود من أجلنا. ما أسهل ظهرها على الركوب؟

وجدّنا العجوز، وهذه طبقة أخرى من طبقات رأس البصل، الذي انتبهنا إليه وهو مستلق على فراش المرض منذ ولادتنا، بل قبلها، أعرج الساق، سمين و"جَثِل الجثة"[٢]. كان يعاني زيادة مفرطة بالوزن بسبب معدته الكبيرة، حيث يأكل بإفراط لا مبرر له، ولم يقبل أن تُجرى له عملية قص المعدة، أو إدخال "بالون" فيها.

تقوم بخدمة هذا الجدّ، امرأة عجوز سوداء البشرة، سمينة بعض الشيء، لم ترزق أبداً بأولاد لتحظى بالأمومة، على الرغم من زواجها مرتين، كانت نشيطة ومثابرة، وسريعة الاستجابة لأيّ طلب. كنا نراها دائماً منزعجة وغاضبة ويائسة من خدمتها لهذا العجوز، كما كانت تحدث نفسها بصوت عالٍ دائماً، فيصل إلى والدنا حديثها مع نفسها، ويضحك منه، وعليها أيضاً.

كنت أنا، بعمري الصغير، وعينيّ الكبيرتين، وفمي الصغير، وشعري الأصهب[٣]، أفكر بحالة جدّي ـ أقصد جدّ أبي ـ الصحّية، أتساءل عن السبب الذي جعله أعرجاً، وسمينًا هكذا، لم تُتاح لي الفرصة أن أسأل جدّتي عن ذلك إلّا بعد أن مات وذهب إلى العالم الآخر، فأُتيحت لي الفرصة أن أسأل جدّتي، وأجابتني.

---

(١) درأيّة: وهو مصطلح خاص برواية أقوال النبي.

(٢) جثل البنية: سمين، وضخم.

(٣) الشعر الأصهب: ذو اللون الأصفر الضارب إلى شيءٍ من الحمرة والبياض.

أنا الفتاة "دنيا"، أكبر من أخي التوأم "رياض" أبو حديبة بدقائق قليلة. حيث بقينا في رحم أمي أكثر من المدة المحددة لأيّ جنين في بطن أمه، وعندما حان خروجنا من الرحم نزلت أنا أولاً، وخرجت من رحم أمي الأظلم قبل أن تموت، وقبل أن يخرج أخي"رياض" بحدبته، والذي جاء في عقبي مباشرة، كنا مختبئين في كيسين جلديين ، وقد تقّول الناس من معارفنا وهم يتهامسون فيما بينهم: إنَّها لعنة أصابت هذه العائلة الأصيلة والثرية، ثم لفظت أمي أنفاسها، وماتت. وهذا ما سمعناه من والدنا الحزين دائماً.

أخي التوأم "رياض"، وهذه طبقة أخرى من طبقات رأس البصل، في ظهره حدبة، وكثيراً ما تعيقه في المشي، أو الركض، وفي الجلوس والمنام. أخي هذا أبو حديبة صبي هادئ، وطيب القلب والسريرة، لم يؤذ نملة في حياته، حتى أنَّه يبقى صامتاً ولا يتكلم، فهو نادر الكلام، لحبسة في لسانه.

جدّتنا التي هي كشطب[1] الريحان. نحيلة وطويلة، تحبنا كثيراً، تقص علينا الحكايات، عن أجدادنا الأوائل، حتى تبطّل آذاننا عن سماع أيّ شيء، لأننا قد شبعنا نوماً ونحن نستمع لها.

كنا أنا وأخي التوأم ندخل غرفة جدّتي عند وصولنا إلى الدار، فتظل تروي لنا حكايات عن الأجداد الأوائل.

سأحكي عن لسان جدّتي العجوز حكاية عائلة عراقية، وهذا رأس البصل الكبير الذي بيد طباخة ماهرة تقوم بتقشيره، ابتداءً من الجدّ الأول، الجدّ المؤسس، وباختصار، وصولاً إلينا نحن التوأم، وما آلت إليه أمورهم، ونهايّتهم، وكيف هدّمت دارهم الكبيرة، وآخر من مات منهم.

(١) شطب الريحان: طويل ورفيع.

إنَّه ماضٍ غير قابل للدفن أبداً، أو الاختفاء، فما زال ينبض بالحياة، كدودة تنبش باستمرار، ويروى بمتعة وتلذذ، وهو كذلك غير قابل للكذب، أو ألتزوير.

بين يديك عزيزي القارئ اللبيب كتاب وضعه أخ زوجي "صلاح" عما تبقى من سيرة حياة عائلة "العراقي"، الجدّ المؤسس الأول، إذ كانت الكتب الثلاثة الأولى قد رويت فيها عن أحوال ومقامات هذه العائلة ابتداء من نشأتها على يد الجدّ الأول حتى ولادة "أنعم" و"أنعام"، مروراً بهروب الخادمة ذات السحنة البيضاء مع حبيبها، ثم بعد ذلك هروب واحدة من نساء العائلة مع حبيبها أيضاً، تلا ذلك الهروب، هروب ثالث لفتاة من العائلة نفسها مع حبيبها الرجل الذي يعمل طباخاً في البيت، هذه الفتاة، كما سمع أهلها الأقوال التي تلوكها الألسن، قد هرب منها الطباخ وهي لم تعد إلينا إلى الآن، ولم يسمع الأهل عنها شيئاً بعد هذا.

وها أنا ذا أروي لكم ، بكل حرية وبلا خجل، ما وقع لما تبقى من هذه العائلة من ذرية، حيث لأول مرة أستأذن جدّتي في أن أجلس على الكرسي الهزّاز المركون في إحدى زوايا غرفتها، لأروي لكم بدلاً من الجلوس على السرير الخشبي، فأذنت لي. وها أنا ذا أهتز على الكرسي، أمام، خلف، أمام، خلف.

***

الفصل الأول

-١-

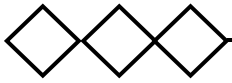

عندما ينام العقل لفترة، تستفيق غرائز الإنسان من رقدتها، فيسكت كل شيء، وتأخذ العاطفة مجالها الواسع، فتحدث أشياء لم نفكر فيها.

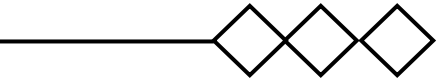

بهذا القول بدأت جدّتي ـ أقصد جدّة أبي ـ التي انطفأ النور في عينيها، فباتت لا ترى، ولم تستخدم الهاتف النقال في اتصالاتها مع الآخرين. وهي جالسة في غرفتها التي في الدور الأول من بيتنا، تروي بصوتها المبحوح لنا، أنا وأخي "رياض" أبو حديبة، عن لسان جدّي، الذي ينقل لها ما رواه والده "أنعم"، ووالدته "أنعام" شقيقة "أنعم" ما حصل للبلد والعائلة بعد عام ٢٠٠٣. العام الذي كان الدم فيه قد انتقل بفعل رياح البلد العاتية، الطائفية، بين المدن كافة، وأصبح "للرچاب"[١].

كانت جدّتي لا تروي لغيرنا شيئاً مما حصل في الماضي من أحوال أجدادنا هؤلاء، من أمور وأحداث غيّرت تاريخ هذه العائلة العريقة.

هذه الأحداث وتلك الأمور لم نكن نعلم بها، لا نحن الأخوة الأشقاء، أنا و"رياض" أبو حديبة، ولا أبي، حفيد هذه الجدّة.

أذكر أنَّها قالت لنا مرة: إنّها تروي كل ما سمعته من زوجها، وما شاهدته هي بعينيها، بلا لفٍّ ولا دوران، ولا تنقص منه

١ ـ للرچاب: أيّ للركاب، ركاب الخيل. مكان الجلوس على الخيل.

شيئاً، إلّا إذا كانت تنساه بغير تعمّد، وهي واحدة من الناس الذين يطلق عليهم تسمية إنسان، ومن ميزات الإنسان هو النسيان، وإلّا لماذا سموه إنساناً إذا كان لم ينس؟

الساعة الآن تشير إلى الثالثة من بعد الظهر، عندما استجمعت قوتها وبدأت حكايتها عن أجدادنا بعد هذا العام، وما قبله، والذي انهال من ركن خفي لذاكرتها النشطة، حيث احتفظت به لترويه لأحفادها "دنيا" و"رياض" أبو حديبة.

قالت، وهي تستخرج ما تقوله من تلك الذاكرة القوية، والنشطة، كذاكرة حاسوب عام ٢١٠٠:

(لم تُسئ لهما الحياة بأيّ شيء، لقد عاشا في جنة ونَعِيم أهلهما.

كان المال بين أيّديهما يتناقلونه كالماء والهواء، ويصرفون منه على أيّ شيء. عاشوا في تلك الدّار الكبيرة. نَعِما بالراحة الدائمة، إلّا إنَّهم، وقد حدث الذي حدث، و"سقط الفأس بالرأس"[1]، كان مثل تسونامي وقع على رأس عائلة "العراقي"، وكذلك على رأس البلد).

وكما قالت جدّتي بلسان جدّي، نقلاً عن جدّي الأول "أنعم" الذي يروي جانباً من حياته مع شقيقته "أنعام":

(- كنت أجلس، بعد العصر، مع أبي الذي ينفث دخان "غليونه" عالياً، ويشرب القهوة الإنجليزية، فيمتلئ فضاء صالة البيت الكبيرة بذلك الدخان الذي يحمل رائحة التبغ الإنجليزي الفاخر، وهي الرائحة التي نشمها دائماً في الصالة، إن كان والدي موجوداً أم لا. وأمي بعطرها الباريسي النفاذ، والتي تشاهد برامج التلفزيون لِما بعد الظهر، وهي تضع نظارتها الطبية على عينيها الزرقاوتين كماء البحر. وثمة قط أسود إنجليزي الأصل ينام فوق الأريكة بجانب أمي، بتكاسل، ورخاء

١ - مثل عراقي.

أرستقراطي كصاحبته، حيث ظهر الحاكم المدني للعراق، بريمر، في فيلم وثائقي، فيما كانت خادمة عجوز وسوداء كالليل تعمل في المطبخ.

كنا قد عدنا منذ سنة تقريباً من لندن التي قضينا فيها أكثر من خمسة عشر عاماً، في الوقت الذي كان أفراد العائلة العراقية يوصون بناتهم أن يرتدين حجاب شعر الرأس، والتنورات الطويلة، خوفاً عليهن من القتل المجاني، كنت أنا، كما أتذكر، هادئ السلوك في بطن أمي كما أخبرتنا هي بذلك، وبارد في تصرفاتي اليومية، بعد أن ولدتُ في يوم بارد من أيّام شتاء لندن. ولم يهنئ والدي أحدٌ من معارفه وأصدقائه العرب والإنجليز، لأنني ولدت صبياً، بقدر ما كانت تهنأتهم له لأنَّني ولدت سالماً، ووالدتي سالمة من المخاض، هي الأخرى. فيما ولدت شقيقتي "أنعام" في خريف العراق، فكانت في بطن أمي ذات سلوك حركي، صاخب، ومؤلم، حيث كانت تضرب بأرجلها بطن أمي باستمرار وكأنَّها تريد الخروج سريعاً من رحمها، وكانت بفعلها هذا تحدث لها ألماً مبرحاً، إلّا إنَّه ألمٌ محببٌ لديها.

لقد احتفظت والدتنا، بعد ولادتنا، بحبالنا السرية في قطعة القماش البيضاء التي استعملتها مرة واحدة عندما فضَّ والدنا بكارتها ليلة العرس الأولى وهي عارية في الفراش.

تساءلت مع نفسي: هل كان خروجنا من رحم أمي فيه ما يفيدنا، أم كان فيه مضرة لنا؟ لم أجد جواباً مريحاً لهذا السؤال.

كانت لندن بمثابة المكان الآمن الذي أخذنا فيه كامل راحتنا، إلّا أن قرار عودتنا لم يزحزح قناعاتنا أنا وشقيقتي، حبيبتي، في أن نكمّل ما بدأناه في لندن.

كان وضعنا في الناصرية أنا وشقيقتي ـ وهذا ما يجب التأكيد عليه ـ مختلفاً عنه في لندن، فقد كان حبنا فيها حباً سرياً، وفي الناصرية أشعناه في العلن.

في زحمة هذا التساؤل دخلت علينا شقيقتي التي أحبها كما يحب قيس ليلى، وكانت هي تحبني بشغف، دخلت علينا وهي تحمل "طاسة"[١] فيها "الشامية"[٢] التي عملتها هي بيديها في الآلة الكهربائية التي جلبناها من لندن، وضعت "الطاسة" أمامنا على المنضدة التي نجلس حولها في غرفة الاستقبال لدارنا الكبيرة، ثم اتجهت إلى التلفزيون الذي كان يبث خبراً عن احتلال داعش للموصل، وسقوطها بأيّديهم، وأخذت تبحث عن قناة هي تعرفها، حتى اهتدت إليها، وعادت إلى مكان جلوسها قريباً مني، جنباً لجنب حتى إنَّني أتنفس زفيرها الساخن.

أحسست بسخونة جسدها الشاب النابض بالحياة، كانت سخونته قد احتوت جسدي كله، التفتت لي وقد وضعت على شفتيها ظلال ابتسامة محببة عندي، وقالت بغنج صبياني:

ـ مد يدك إلى "الطاسة".

وأمسكت يدي بيدها ووضعتها في "طاسة" الشامية.

لم يكن أحد منا قد تكلم. فقد كانت أمي ترضع أخي الصغير ـ الذي مات بعمر الخامسة من عمره ـ من ثديها الكبير الذي اندلق من "زيق"[٣] ثوبها الأحمر القصير المزيّن بالورود الملونة، وأبي يقرأ في جريدة عراقية مسكها بيديه الاثنتين.

قالت آمرة: كُل.

وانفرجت شفتاها عن ابتسامة صغيرة كنت دائماً أراها على شفتيها كلما التقت بي.

كانت هي أكبر مني سنّاً بثلاثة أعوام. بدت لي مثل "الحوريات المسعورات" في رواية "لوليتا" التي قرأتها أكثر من مرة، إنَّها جميلة الجميلات بالنسبة لي، ومثيرة، وشهية

(١) طاسة:إناء لشرب الماء.

(٢) الشامية: وهي من المكسرات.

(٣) زيق: فتحة الثوب العلوية التي يدخل منها الرأس.

كثمرة التفاح الناضج. كانت نابهة، حتى إنَّها لم تتصرف في يوم ما تصرفاً طائشاً وغير مرغوب فيه أبداً. وجهها يضيء. شفتان عنابيتان، داكنتان، مكتنزتان بالعاطفة المحمومة والشبق اللاهب. كانتا باسمتين كلما تنظر لي، وعينان زرقاوتان بلون البحر الهادئ، فاتنتان، واسعتان. فيما بياضهما ناصع كبياض البيضة المسلوقة، وفخذاها اللذان يبدوان من تنورتها القصيرة لحيمين، بضّين، نابضين بالحياة والشبق الذي أحسه وأشعر به كلما رأيّتها أمامي وهي تسحب تنورتها إلى الأعلى بهدوء عندما تغافل والديّ، فيستعر جسدي كله لمرأى فخذيها الأبيضين البضّين. كنت أخشى أن يراني أبي متلصصاً على شقيقتي.

كانت هوايتها المحببة، مثل هوايتي أنا، قراءة الروايات والقصص والأشعار، وكانت تحتفظ بكتاب "ألف ليلة وليلة" باللغة الانجليزية، وبرواية "لوليتا" لنابوكوف، الرواية التي قرأتها، كما قرأتها أنا، أكثر من مرة.

كانت القناة التلفزيونية التي ظهرت أمامنا على حائط الصالة، تعرض برنامج "المسامح كريم"[1]، كما أتذكّر ذلك، حيث يقدم شابة جميلة سمراء مكتنز جسدها بشبق الشباب، وهي تتحدث بمحبة وهيام عن شاب تركها ولم يتزوج منها، بعد أن تحابوا سنيناً طوال. ويظهر في نهاية البرنامج أن الشاب هذا أخوها بالرضاعة كما صرح بذلك، إلّا أنَّها تقول: إن فرق العمر عشر سنوات فكيف يكون أخيها بالرضاعة؟

دار جدال ونقاش طويل بين أمي وأبي الذي حرّك يده تلك اللحظة على صلعته الكبيرة التي ورثها من جدّي، ليمسحها، وهذه عادة قديمة عنده، عن هذا الموضوع. فيما كانت شقيقتي "أنعام" تنظر لي وهي تبتسم، وفخذاها قد ظهرا بعد انحسار

(١) المسامح كريم: برنامج تلفزيوني يعرض هذه الأيّام ويقدمه مقدم البرامج جورج قرداحي.

تنورتها إلى الأعلى، فداخ رأسي، ولم أستطع السيطرة على تلك الدوخة التي أشعلت النار في جسمي.

سألت شقيقتي والديها بنبرة استفهامية، عن قضية الأخوة بالرضاعة، لماذا لا يتزوجون؟ رغم إن هذا الموضوع حساس، ولم يقل فيه أحد سوى رجال الدين، إلّا أن والدي قال: في الإسلام لا يحرم مثل هذا الزواج كما أتذكّر، وللرضاعة شروطها.

ردت شقيقتي قائلة بكلام يشبه الهمس، إلّا أنني سمعته كأنه موجه لي:

- والأشقاء، أليس كذلك؟

ثم وضعت يدها على فخذي وضغطت عليه بقوة. وما زال الوالدان يناقشان زواج الأخوة بالرضاعة. حيث تركتهم في زحمة أسئلة الأخوة بالرضاعة، وزواج النبي إبراهيم من أخته سارة، والذي أثارته شقيقتي. حتى قال والدي: إنَّ الفساد في القمة.

لقد طال النقاش بينهما ولا أرى أنَّه سينتهي إلى حل، لأنهما لا يفقهان بالدين. إنَّه نقاش لا يصل إلى ضفة يركن إليها، لذا رأيّت شقيقتي "أنعام" تغمزني بعينها الكحيلة، بعد أن رفعت يدها من على فخذي وغمزت لي إشارة لي على أن أتبعها. ونهضت خارجة من الصالون).

وتغوّش كل شيء أمام عيوننا أنا وأخي"رياض"، غاب كل شيء، ثقلت جفوننا، فراحت تنغلق بسهولة.

انطفأ كل حس بالسمع عندنا نحن أحفادها الصبيان "دنيا" و"رياض" حيث تصفنا بالحلوين، وتوقف الزمن. رحنا في غفوة وسبات، تكلّلنا الأحلام الوردية الجميلة، والأمن والسلام.

***

-٢-

وفي ليلة كانت فيها السماء سوداء، مكفهرة، وقد غاب عنها القمر، وبلعت كل نجومها، روت جدّتنا قائلة:

قال زوجي نقلاً عن أبيه "أنعم":

(لا أعرف إلى أيّن ذهبت، فقد قمت أنا كالنائم مغناطيسياً وتبعتها، متتبعاً عطرها، وتركت والديّ يتناقشان في مسألة الرضاعة التي طرحتها الفتاة التي ما زالت تنشج باكية في برنامج التلفزيون.

أتّبع عبق عطر شقيقتي "أنعام" الذي هو مزيج من العطر الإنجليزي والفرنسي، يدخل العطر غرفتي، فأدخل خلفه وأغلق باب الغرفة. تتجه "أنعام" إلى الحائط المقابل لسرير نومي وتفتح جهاز التلفزيون، ثم تديره على القناة التي تعرض البرنامج، كان البرنامج على وشك الانتهاء، حيث رأيّنا الشاب يزعل، ويخرج من الأستوديو وهو يصيح: إنَّها كاذبة. ولا أعرف لماذا صرخ بذلك. هل أن حبها له كان كاذباً؟ أم لأنها أخته بالرضاعة؟ أم لسبب آخر؟ فيما كانت مجموعة المفاتيح المتدلية من فتحة قفل الباب تتحرك جيئة وذهاباً بتناغم "دوّخني"، ففقدت السيطرة على نفسي الملآنة بعطر"دنيا" حتى أخرجني صوتها وهي تخاطبني قائلة:

- ما رأيّك حبيبي؟

وسحبتني من يدي وأجلستني قربها على سرير نومي. حتما أنَّ فؤادها لم يكن خالياً من شيء، من أيّ شيء.

كانت صورتنا تنعكس في مرآة غرفتي الكبيرة التي وضعتها لأرى هندامي عند الخروج من البيت. كنّا حبيبين.

وضعت يدها على رأسي كطفل يتيم وراحت تداعب شعره بنعومة، وحب زائد، فيما زغب وجهها لم يزل خفيفاً وناعماً ولم يرَ الخيط يمر به.

شعرت بفمي قد تخدّر كلياً، وسيماء وجهي قد تصلّب فيها الدم، اصفر لونه، وتغيّر أكثر من مرة، حتى بات بلا لون، والكلمات التي كنت أغزلها لمثل هذا الموقف تبددت مني كما يتبدد الدخان في الفضاء.

كنت أنظر إليها بعينين فارغتين، وأنا أنتظر فعلها القادم، وأيّ سلوك ستسلك معي، وأنا بقرارة نفسي اللهفى أتوق للارتماء في حضنها وتقبيلها، ولثم ثغرها العنابي بشفتيه المكتنزتين. وكانت عينايّ تفضحان لهفتي، واشتياقي، ونداء قلبي، فقد شعرت باهتزازات الرغبة في أعماقي، إلّا أنَّ وجود أمي وأبي في الصالة هو الذي يمنعني عن ذلك.

كان نهداها قد تكوّرا كفتاة في سن المراهقة، وقد كبرت أردافها، وامتلأت صفحة وجهها بحب الشباب الناعم، وزغب شعره أشقر جذاب. كانت جذابة كثيراً، تطفح بالرغبة. فعيناها يلتمع فيهما ضوء يعكس الشبق الحار الذي تشعر به عندما تجلس بالقرب مني، وجسدي الذي انتقلت له حرارة جسدها الأنثوي يحتك بجسدها اللدن الحار الذي "سيموع"[1] لهفة وشبقاً. كانت أنفاسها الحارة كوهج الشمس تلفح وجهي بحرارتها الشبقية. كانت تثيرني جنسياً بوضعها هذا.

لم أقل ولا كلمة. كان الصمت في الغرفة يرتعش كأننا نريد أن نقول كلاماً، إلّا أنَّنا نسكت فجأة. وكانت أشعة الشمس الباهتة تتسرب إلى مكان جلوسنا عبر الستائر البيضاء.

كانت زرقة العيون التي طالما أبحرتُ فيهما في الخفاء قد شلّتني. أتنفس عطرها، فرحْت هائماً في عالم البحار، والأمواج، والعتمة التي تصنعها تلك الأمواج العاتية، فحالت ما في نفسي من هدوء مشاعري المتأججة إلى صخب وتلاطم.

---

(١) يموع: يذوب.

كانت هي أجرأ مني بكثير، لا يهمها أيّ شخص، فأخرجني مص شفتي السفلى بشفتيها العنابيتين، النهمتين، المكتنزتين بالشبق العنابي، من بحار عينيها الزرق. كنت أحس بصدرها كحبة رمان ناضج. أغمر وجهي في شعرها الأسود الليلي، فيجد رأسي ملاذه الأخير.

بدت لي "أنعام" كأيّ امرأة غريبة، مبهمة بالنسبة لي، ها هي "الحية" قد بدأت تتحرك في نفسها، رغبة جامحة تراودها منذ زمن وتحركها نحو هدفها، احتضنتني بين ذراعيها. كانت سوالف شعرها قد غطت عينيها فبدت أكثر جمالاً من السابق. أخذت الكلمات ترقص في رأسي مثل الموسيقى إلّا أنَّ ما أحسست به من نار تصعد إلى رأسي، أنسانيها، إذ تبلّد تفكيري. كانت الحرارة، على الرغم من أن مكيّف هواء الغرفة شغّال، قد وصلت إلى ما بين أسفل فخذيّ، فتهت في عالم آخر غير العالم الأزرق، عالم بهي كأنه عالم سحري فاض فيه ماء الحياة اللذيذ.

خرج الزمن عن سيطرتنا إلى الأبد. لاحت لي الساعة الجدارية على الحائط قد توقفت ومات الزمن فيها.

بلا مقدمات هدّمت "أنعام" كل حائط بيننا، كما هدّمت زليخة ما كان بينها وبين يوسف من عراقيل، فهمّت به وهمّ بها، وهدّمت ما كانت تعطية كلمة "زنا" من معنى غير مشرع من المجتمع والدين، وأضحت كلمة بلا معنى. عندها أيّقظت كل غرائزي وحواسي التي كانت نائمة بتبلّد)

***

تغوّش كل شيء أمام عيوننا أنا وأخي"رياض"، غاب كل شيء، ثقلت جفوننا، فراحت تنغلق بسهولة.

انطفأ كل حسّ بالسمع عندنا نحن أحفادها الصبيان "دنيا" و"رياض" حيث تصفنا بالحلوين، وتوقف الزمن، رحنا في غفوة وسبات، تكلّلنا الأحلام الوردية الجميلة، والأمن والسلام.

***

-٣-

في يوم آخر، وبالضبط بعد الساعة الثامنة ليلاً، بدأت جدتي بمتابعة تقشير رأس البصل، فروت لنا عن "أنعم" و"أنعام" نقلاً عن جدّي الأعرج السمين قائلة:

(أخذني حصان أبيض مسرّج بالذهب والفضة وغاص بي في زرقة ذلك البحر، ضمٌ، وقبلات، ورضاب كالشهد يسيل، هذا ما حدث بيننا.

شعرت بأوصالي مستفزة، وغير ثابتة، ولا مستقرة، وتخفق كطائر مذبوح، ترتجف، وتختض، بسرعة وبقوة.

كان صدرها يضغط على صدري، وأنفاسها راحت تتلاحق وتدفع بنهديها المكورين بشدة إليه. قلت مع نفسي التي عصفت بها تأوّهاتها الحارة التي تطلقها من فم شهواني يقذف الحمم، وأنا أشاركها التأوّهات تلك بالحرارة نفسها، والاحتضان والقبل: الشمس لا تمر على جلودنا ما لم نكن عراة كما كنا. بهذه الجملة أكدت لنفسي المأخوذة بما تفعله "أنعام".

وكاد أن ينفتح باب الغواية المفزع لي على مصراعيه أمامنا، لنتمرّغ فيه، وانجذبت إليها بلا رقيب أو حسيب، وأنا أتعرّق، وقلبي ينبض بسرعة، وأشم رائحة اللقاء في بحر من الغواية الحارقة واللذيذ، ولا مجال للهرب منه. وقبل أن يظهر الاتقاد بيننا، ونحن في كتلة النار الحامية، حيث سخن جسدينا، جاءنا صوت والدنا ضاجاً به فضاء بيتنا الكبير يدعونا للغداء، عندها، وبتكاسل، تركنا ذكورتنا وأنوثتنا في الغرفة، وخرجنا والعرق يتصبب متلألىء فوق أجسادنا المخدّرة من هذه الغواية اللذيذة، وقد لفنا حزن لذيذ.

أمّنت على فكرة في رأسي مفادها إنَّ حبنا بلغ من القوة والصلابة مبلغاً مما جعله متماسكاً إلى الحد الذي يقف أمام تعنّت والدينا والمجتمع. يجب أن يستمر، هكذا قلت مع نفسي وأنا أتجه

إلى غرفة الطعام بكراسيها الخشبية الستة، ومنضدتها "الصاجية"[1]، وقد توزعت عليها صحون الأكل الفارغة، والملاعق، والشوكات، فيما امتلأت أواني الخزف الصيني الكبيرة بالرز، والمرق، وبقية زلاطات الخضرة.

كان التحدي هو القوة التي تمسّكنا بها أمام اعتراض الكثير من أهلنا ومعارفنا، ومن بعض رجال الدين القلائل الذين رفضوا هذا الزواج ولم يعقدوا قراننا، أنا و"أنعام"، إلّا أن هذا التحدي هو نوع من الفساد الذي تلبس كل معالم الحياة كما قال البعض الرافض له.

كان الفصل ربيعاً، والوقت في حدود الساعة الخامسة عصراً، حيث أصبح ضوء الشمس لامعاً مثل قطعة سمن في "طاوة"[2] القلي.

لقد بدأ أول مسار الشعاع لهذا الحب في لندن. كنا في خلوة، أنا وهي، في إحدى حدائق المدينة، تضللنا شجرة خضراء بورقها الكثيف. كانت هي البادئة بفتل ذلك الشعاع، منذ أن كان خافتاً إلى أن شعّ بضوئه الساطع.

إنَّها فتاة تكبرني بثلاث سنوات، بنت أمي وأبي، أحبّتني، وعشقتني، وهامت بي حباً. كانت مصنوعة من معدن العاشق الهيمان بشقيقه. وكنت مضطرّاً أن أبادلها هذا الحب حتى استقام، وكبر، فكان أن أصبح معدني مثل معدنها بالضبط.

أصبح عمر شقيقتي حوالي ثمانية عشر عاماً، وهي مسؤولة عن نفسها، كما أخبرتني هي، وعن تصرّفاتها، وهي تقرر مصيرها، وتختار من تحب.

---

(١) الصاجية: مصنوعة من خشب الصاج.

(٢) طاوة: إناء للقلي.

وأول ما التقت بالجنس، كما أخبرتني، وهي في الثالثة عشرة من عمرها، يوم أرتها زميلتها الإنجليزية في الصف، صورة لرجل وامرأة يمارسان الجنس، ومن ذلك اليوم تشتري، هي وزميلتها، مجلات تعرض صوراً مثل هذه.

لم يكن المكان هو الأفضل لجلوسنا، إلّا أنَّ الوقت كان ملائماً لنا، والمنطقة شبه مهجورة من المارة.

كانت ذراعاها عاريين، ولم يكن قميصها الذي اختارته بعناية لهذه النزهة، من ذوي الأكمام الطويلة. وكان شعر رأسها المصبوغ باللون الذهبي قد ضفرته بضفيرة واحدة وتركتها تنزل على ظهرها، يشع بهاء مثل ضوء الشمس. وهناك قرطان صغيران في شحمتي أذنيها ساكنين في مكانهما لا يتحركان.

قبلتني على شفتيّ، ومصّت رضابهما، وقالت دون أن يطرف لها رمش: أحبك. ارتبكت، خشيت من والديّ، من الناس. كنت في عمر الثالثة عشرة، صبياً يبحث عمّن يطفئ شبقه الصبياني الجارف.

نهضت من على "المصطبة"[1] التي كنت أجلس عليها جنب شقيقتي "أنعام"، قلت مع نفسي: إنَّها مخاطرة كبيرة ما كانت تفعله، فيما كنت أميل لفعل ذلك معها بالذات.

نهضت هي الأخرى، كان خصرها ضيقا. سرتُ بخطوات سريعة لا أعرف إلى أيّن، تبعتني، أمسكتني من ذراعي. قالت: اهدأ ستفهم الأمر جيداً. ألم تقرأ رواية "لوليتا" وسكان صقلية، وما كان يفعله الآباء ببناتهم؟ حركت رأسي دلالة الإيجاب، على الرغم من أنني همت بها حباً كما هي، لم أصغ لها في ذلك الحين

كانت هي تؤمن بأن إنقاذ الإنسانية سيتم من خلال حب الأشقاء وزواجهم، مثلما أنقذ الإنسانية وقت آدم وحواء أوّل مرة.

---

(١) المصطبة: تخت للجلوس.

عند وصولي إلى غرفتي، دخلتها، وأغلقت الباب من خلفي، رميت بجسدي إلى السرير، فكرت جيداً بالأمر، تساءلت: كيف تطلب مني هذا الشيء؟ هل غريزتها ورغبتها الجنسية هي التي تحركها هكذا؟ هل كانت تبحث عمن يطفئ تلك الغريزة، ويُسكت هذه الرغبة فقط؟ لم أصلْ إلى جواب مُقنع لهذه التساؤلات، إذ أخذني النوم في طريقه المليء بالضباب.

في اليوم الثاني، اقترحت أنا عليها أن نخرج إلى الحديقة العامة التي كنا فيها يوم أمس. رأيتها قد فرحت، انتعشت، ابتسمت، فاض مرحها كثيراً، ردّدت: هيا بنا.

كان الغروب قد حل بالحديقة فأصبحت شبه خالية سوى بعض العشاق الذين لم ينتبهوا لأحد سواهم. طارت مجموعة من الطيور من على شجرة أمامنا.

كان الجو بارداً، ورطباً، وثمة ضباب بدأ يهبط على أرضها الأسفلتية، وأرضها المزروعة بالثيل الأخضر، وبعض الأشجار.

تبادلنا القبلات جلوساً في مكان بعيد عن أنظار الناس في الحديقة. تحركت أصابعي على جسدها المرمري الأبيض البض، كانت سريعة الاستجابة لتحركات أصابعي العشرة. قالت بعينين ناعستين:

- أنا أحبك، بل أموت بك حباً.

ارتجفت لقولها وبقيت ساكتاً، سمعتها تهمس في أذني القريبة منها ببعض الكلمات، قالت:

- ما أجمل النجوم فوقنا.

وكانت النجوم تتوالد من خلف الضباب في السماء الداكنة فوقنا، وقد زحف الظلام كلياً على الحديقة، ووشّحها بوشاحه الأسود البارد والرطب.

سألتني قائلة:

- أترى تلك النجمة البعيدة؟

لم أنبس ببنت شفة. كنت كالسرحان في أمر ما. لم أناقش معها قضية حبّنا، والنجمة البعيدة.
على الرغم من أنها تكبرني بثلاث سنوات، كانت جميلة وشهية، وكنت أبحث عمن يسد ما في غرائزي من شبق متزايد. لم يكن لي صديق أسِرّه بما أمضّني من أفكار، ولا صديقة. كنت وحيداً إلّا منها، شقيقتي "أنعام". كانت هي أمامي فقط، كم تمنيت أن أطُولَها بيديّ هاتين. أن أعجن جسدها اللدن. أن ألثم ثغرها العنابي، المبتسم دائماً. أن أتذوق دفء لسانها، وأتذوق عسيلتها اللذيذة بلساني.
وكانت هي قد أخبرتني إنَّها قد تعلقت بي لِما رأته من خط الشارب الخفيف في وجهي، فأعجبها ذلك، كما أكدت لي، وحرك أنوثتي نحوك، فكنت كالجمر أنتظر نسمة هواء لتجعلني متقدة، فانهال عليّ الشبق كأمطار لندن.).
***
تغوّش كل شيء أمام عيوننا أنا وأخي"رياض"، غاب كل شيء، ثقلت جفوننا، فراحت تنغلق بسهولة.
انطفأ كل حسّ بالسمع عندنا نحن أحفادها الصبيّان "دنيا" و"رياض" حيث تصفنا بالحلوين، وتوقف الزمن. رحنا في غفوة وسبات، تكلّلنا الأحلام الوردية الجميلة، والأمن والسلام.
***

الفصل الثاني

-١-

بدت مدينة الناصرية في هذا الخريف تمور بالحركة، فالناس لا تعرف التعب، ولا الكلل، تتحرك بشتى الاتجاهات وكأنَّها متعهدة بحفظ توازن كرة الأرض خوفاً عليها من الميلان* إلى جهة ما.

كنت أنا بشعر رأسي الأصهب النازل على الكتفين، وقامتي الضخمة كقامة جدّي الأوّل كما كان يصفونه، وبجيوب "نفنوفي"* الأزرق المزين بالورود الملونة، الفارغة من كل شيء. أتصرّف كما تتصرف فتاة ناضجة، وأخي التوأم "رياض" الذي يشبهني إلى حد ما، سوى أنَّ عظمتيْ وجنتيه ناتئتان بعض الشيء كما هي عند أحد أجدادي السابقين، والتي تبرزه الصورة الفوتغرافية الكبيرة المعلقة في صالة البيت.

كانت حدبته الصغيرة تجهده عند الركض، فتعيقه كثيراً، وهي التي تميّزه عني. وشعر رأسه الذي تركه أبي يطول وينزل على كتفيه كما كان جدّي الأوّل، وصوته الذي يشبه صوت أكل شوربة العدس الحارّة، يشفطها مع الهواء شفطاً ليخرج صوت شفطه قريباً إلى الصوت الأنثوي المتثنّي، وقد التصق قميصه ذو الخطوط العريضة على جسمه من شدة تعرقه.

كنّا مجرد صبيين اتسخت ملابسهم وأجسادهم بغبار هذه الدّار الكبيرة ونحن نركض خوفاً من هذه الآلة التي تشبه الوحش، وهي تهدّم هذه الدّار التي بناها أجدادي، وعشنا فيها نحن التوأم لسنواتنا العشر. وعاش فيها الوالدان والأجداد سنوات طويلة حتى ماتوا. فيما أسفلت الشارع يبعث حرارة في الجو تزيده

حرارة على حرارة، ورائحة أسفلتية محروقة تنبعث منه تجعل منخرينا لا يطيقان التنفس أبداً.

كان الباب الرئيسي المعمول من الحديد لمدخل الدّار الكبيرة يقف بين دعامتين عاريتين من الزخارف إلّا في قمتهما، إذ يوصل بين هاتين الدعامتين جسر مقوس يحوي أشكالًا "جبسيةً" بارزة لطيور وحيوانات متوحشة من عالم الغابة الكثيفة التي لم نرها في الحقيقة. كتب في منتصفها "هذا من فضل ربي" بحروف بارزة، مُحِيَ حرفا الراء والباء منها بتقادم الزمن.

ومن الباب الأوّل الحديدي إلى الباب الثاني الخشبي للدار، مساحة من الأرض، مقسومة إلى نصفين مزروعين بالأشجار و"الثيل"[1]. في وسطهما ممراً بعرض مترين مرصوف بـ "الفرشي"[2]، وقد انتصب على جانبيه شجيرات الآس الدائمة الخضرة، ونمت بين "فرشية" وأخرى، حشائش خضراء، منحت المدخل جمالاً، وجواً لطيفاً في حر المدينة الصيفي.

بدت هذه الدّار الكبيرة تنقص طابوقة طابوقة من علوّها وجوانبها، وأركانها. إنَّها تتآكل من كل جانب بفعل هذا الوحش الجبار حيث يقوم بضربها "بكيلته"[3]الكبيرة.

كان الكيس المتخم بأشياء داخله، كبير الحجم على صبي صغير له حدبة في ظهره، مصنوع من الخيش، قد تصلب في بعض من مواضعه من الرطوبة اليابسة، ومن ذروق الطيور والخفافيش، وفي داخله أشياء لم نعرفها، لأنَّه مغلق بخياطة فتحته العلوية، إلّا أنَّ هذه الأشياء كما بدت لنا تشبه الكتب، أو السجل الكبير.

---

(١) الثيّل: يعرف بعرق النجيل من أنواع النباتات العشبية المعمرة التي تنتمي للفصيلة النجيلية.

(٢) الفرْشي: طابوق عريض خاص لفرش الأرضيات.

(٣) كيلة: كيلة الشغل، الحوض الذي يحمل به التراب.

وصلنا إلى والدنا الذي لفه الحزن على هدم دار الأجداد، كأنَّ فاجعة ألمّت به، وكان يدور في مكانه كالثور "الهائج"، عاقداً يديه خلف ظهره، محنياً ظهره قليلاً كمن يفكر في شيء ما، ونحن لا نعرف بماذا يفكر، فيما "الشفل"[1] يُسقط كتل الطابوق المبني منها الدار. يضرب الجدران فتتساقط بكل سهولة، طابوقة طابوقة، أو كتل من الطابوق، حتى الشبابيك والأبواب لم تسلم من ضرباته القوية. هذه الشبابيك والأبواب الخشبية والتي تبدلت أقفالها أكثر من خمس مرات، كل مرة بسبب ضياع المفتاح، ومرات بسبب تجديد الأقفال.

جرت خلف هذه الأبواب والشبابيك، المئات من الأحداث، والحوادث الصغيرة والكبيرة، فكانت كالستارة لها وهي تخفيها عن الأعين والأفواه الناقلة لها همساً.

لقد داهم حزن فاجعة هدم الدّار الكبيرة على والدنا كالصاعقة، فيما لم يهتم لهدمه لا أنا ولا شقيقي أبو حديبة، ولا جدّي، ولا جدّتي.

عندما علت الشمس الحارة مبتلعة زرقة السماء، ووصلت إلى سمت السماء الخريفية، فأصبح لونها كالذهب المتلألأ، اهتزّ المكان إثر سقوط حائط كامل من الدّار الكبيرة، فملأت أجواء المكان سحابة من غبار الجص، والطابوق، والتراب، غطتنا كلنا حتى لم يبق منا إلّا العيون "المبحلقة"[2] في اللا شيء، ومن خلل الغبار رأيّنا مجاميع كثيرة من الخفافيش السود تسد الفضاء الذي أمامنا نحن الثلاثة وتنتشر في الجو طائرة إلى جهات مجهولة.

(١) الشفل: الجرافة الآلية.

(٢) بحلق: حدق، نظر نظراً شديداً.

الجو حار في المكان، وخمٌ، والهواء الذي نتنفسه مملوء بغبار التراب، والجص، والطابوق المتكسر، كان هذا الغبار لئيماً، وهو ممزوج بالحر المسبب لأن تنزّ أجسادنا العرق الصمغي الدبق.

كانت لحية والدنا الكثة قد تحول لونها من اللون الأسود إلى اللون الجصي بفعل الغبار المتطايّر من التهديم، وكثيراً ما استرسل ذهني في بناء هذه الدّار الكبيرة قبل أكثر من ثمانين سنة مضت، طيلة أيّام الهدم التي نأتي لها أنا وأخي أبو حديبة مع والدنا.

***

-٢-

الساعة الآن هي الواحدة من بعد الظهر حين وصلنا إلى مكان دوران والدنا كحمار الناعور المعصوب العينين، فيما أنفاسنا قد ضاقت علينا ونحن نسحب الهواء بصعوبة، نجرّه جراً كثور عاند صاحبه فلم يتحرك من مكانه، كأنَّ منخرينا قد سُدت فتحتيهما بشيء كبير وثقيل، إذ أصبح الهواء كمذاب الرصاص ثقيلاً.

كان كمن تسمّر في وقفته، بعد دورانه المعتاد كحمار الناعور، حيث رياح الخريف تُسقِط أوراق الأشجار بالقرب منه، أو على رأسه، ووجهه الذي أصبح كتلة بيضاء بفعل غبار الجص الذي تحركه الرياح فتذروه على خده ورأسه وملابسه.

وضع أخي، وهو يلهث كالكلب، الكيس الذي كان يحمله فوق حدبته، أمام والدنا الذي قال لنا دون أن يلتفت ناحيتنا:

- ماذا وجدتم الآن؟ وابتسم عن وجه غطّاه الغبار الأبيض.

أجاب أخي وهو يلهث من الركض وحمل الكيس، فيما قد شَعَر بخيط من السائل اللزج ينز من حدبته تحت قميصه الأبيض الوسخ الذي التصق بجلده الناعم. كأنَّ العرق هذا مثل صمغ ذائب في نار حامية. حرك أصابع كفه عليه بلا مبالاة. قال:

- استلم.

كان والدنا قد بدا عليه التذمر، وهو يمسح العرق المتصبّب من حرارة الجو والغبار المتطاير بكل الاتجاهات من على وجهه وصدره المشعِر، ينظر إلى "الشفل" وقد غطى وجهه غبار التهديم. قال أخي بتثني صوته الشبيه بصوت الأنثى:

- افتحه لترى.

نظر إلينا، وبتكاسل جلس على الأرض وراح يقلع الخيط الذي خيطت به فتحة الكيس بقطعة حديد من "شيش"* البِناء. انفتح الكيس، فاندلقت أمام أعيننا كتب سميكة تمزقت بعض أغلفتها،

وسجلّ متوسط الحجم، وكيس صغير مصنوع من النايلون لُفَ شيءٌ بداخله.

حمل والدي أحد الكتب وبدأ يتفحصه من كل جوانبه، فكانت الرطوبة قد فعلت به فعلها الذي لا يمحى. بعد دقائق قال بصوت خفيض:

- إنَّه كتاب ألف ليلة وليلة.

سقطت وردة حمراء من الكتاب وقد جففتها السنوات العديدة التي مرت عليها وهي بين صفحات الكتاب الصفر فأحالتها إلى وردة ذابلة. كانت ذابلة وقد مُصّت كل نضارتها، وطراوتها، وكأنَّ مئات السنين مرت عليها وهي قابعة في هذا المكان. كانت الوردة الذابلة قد وضعت بين أوراق الكتاب، ربما تعلّم إلى شيء ما، أو ربما إلى الصفحة التي وصلت إليها القراءة، أو رقم الليلة من ليالي ألف ليلة وليلة التي وصل لها أحدهم في القراءة.

ترك والدي كتاب ألف ليلة وليلة على الأرض، وأخرج من الكيس كتابًا آخر تمزّق غلافه وبعض أوراقه من الأطراف. همس والدي بعنوان الكتاب قائلاً: كتاب الحيوان للجاحظ.

راح والدنا يقلب الكتاب ثم تركه على الأرض، وقد كُتِبَ على الصفحة الأولى منه بالقلم الجاف عبارة قرأها والدي بحس تمثيلي (أنا المحب القادر على أن أحبكِ حتى وأنتِ بعيدة عني).

وضع أبي كتاب الجاحظ جانباً ورفع السجل بيديه وفتح غلافه المتهرّئ وقرأ بلا صوت، ثم قال كأنَّه يحدث شخصاً آخر:

- إنَّه سجل ذكريات مكتوب بخط اليد.

وضعه بهدوء على الأرض. بعدها أخرج كتاب غلافه "أملح"[1] اللون وهو بعنوان (المرأة المصرية القديمة) تأليف الدكتور محمد فياض.

---

(١) أملح: دخاني اللون.

وكان السجل هو الآخر مكتوبا على صفحته الأولى بالحبر الأحمر عبارة قصيرة جداً تقول: (أحبكِ دوماً)، قرأها والدي بصوت مسموع وهو يبتسم.

ترك الكتاب على الأرض وحمل في يده كيس النايلون الأسود الملفوف فيه شيئٌ لم يتوصّلوا إلى معرفته، لا هُم ولا والدهم.

قال أخي رياض:

- أبي ماذا في الكيس؟

نظر أبي إليه وقال:

- سنرى ما فيه.

فتح أبي لفافات الكيس النايلوني الأسود وأخرج شيئاً منه على شكل قرص مصنوع من اللدائن، وقد كتب على وجهه بلغة عربية (فيلم الطريق إلى سالونا).

جمع والدي الأشياء الثلاثة وأعادها إلى الكيس، بعد أن ترك كتاب "قصص الأنبياء" في الكيس ولم نعرف عنوانه. قال لنا وهو يحثّنا على أن نتبعه إلى سيارته:

- هيا بنا إلى البيت.

واتجه ثلاثتنا إلى السيارة السوداء ذات الدفع الرباعي.

ونحن نصعد السيارة سمعت والدنا يقول:

- لماذا جُمعت هذه الأشياء في هذا الكيس؟

صحيح إنَّ الكلام هذا غير موجه لي، ولا لأخي، إلّا أنّي قلت له:

- لا أعرف.

وتساءلت:

- من صاحب هذه الأشياء؟

قال والدنا:

- أحد أجدادك.

***

الفصل الثالث

-١-

وكان صباحا خريفياً، جافاً، وحاراً، شاحباً ليس مثله صباح، إذ إنَّه يقبض النفس برائحته النتنة، "الزَفِرة"[١]، التي انتشرت في فضاء "المسناية"[٢] والمنطقة المحاذية لها "وعلوة"[٣] السمك ذات السقف المسنّم والمصنوع من صفائح " الچينكو"[٤] المضلعة.

رائحة"الزوري"[٥] النتن تذكّرته "دنيا" وكأنَّها تعيش الأيّام الخوالي التي مضت، والتي سمعت أخبارها من جدّتها هي و"رياض" أبو حديبة، وما زالت عالقة مع أخبار من مضوا، وهي تصمّ منخريها كي تمنع استنشاق هذا الهواء النتن. إحساس يلفُ أعصابها الصغيرة، وحكايات جدّتها ترن في أذنيها.

هي وأخوها يقفان قرب ضفاف النهر الذي يجري منذ آلاف السنين، بل ملايين السنين، وقد مرّت عليه أحداث وحيوات كثيرة، وهو يحمل آلاف الذكريات الحزينة والمفرحة. هذا النهر ترسو على ضفته اليسرى بعض السفن التي تنقل الركاب والأشياء من مدينة تقع عليه إلى مدينة أخرى، كانت الناصرية من ضمن تلك المدن، ودار الأجداد الكبيرة تقع عليه، أيضاً.

---

(١) الزفر: الكلمة سريانية "زوفرا" أيّ الرائحة الكريهة. وسُمي بها مَنْ يطبخُ اللحوم ذات الرائحة المنتشرة، دليلاً على كرمه وسخائه وحُسن وفادته.

(٢) المسناية: هي المنطقة المبنية على شكل مدرجات على حافة ضفة النهر.

(٣) علوة: وهي المكان الذي يقع فيه بيع السمك بالجملة، وكانت تقع قرب بستان حاج عبود قرب النهر.

(٤) الچينكو: وهي نوع من الصفائح المعدنية المضلعة التي تستخدم للبناء وتغطية السقوف.

(٥) الزوري: سمك صغير، وهي كلمة سومرية تتكون من كلمة"زو" التي معناها السمك، و"لفظة"ري" التي معناها "الصغير"..

في هذا الصباح الذي كانت فيه السماء ما زالت ترسل أشعة الشمس الصفراء كعمامة نحاسية حارة تلف رؤوسنا في ذلك اليوم الخريفي الذي يقبض النفس، ورائحة "الزوري" النتنة المنتشرة في أرجاء المكان، وبحركة الأشجار النحيلة وأغصانها المتعبة من حمل أوراقها الصفر وهي تتحرك بكسل، فراحت تنفضها كما ينفض الحمّال ما كان على ظهره من حمل ثقيل، فتتطاير في الجو كأنَّها ريش عصافير صغيرة، فيسقط قسم منها على الدور المجاورة لدار الأجداد الذي يُهدَم أمام عيوننا، والتي تشبه الكلاب القابعة في مكانها وهي تلهث ألسنتها المتدلية من شدة الحر. وقسم منها يسقط في المنطقة التي يتحرك فيها والدنا بعيداً عن الدار ذات الطلاء الأبيض، دار أجداده، وهو يُهدَم أمام ناظريه شيئاً فشيئاً بعد أن أكلت الأرضة خشب سقفه المتهاوي، ونخر أجزاء منه السوس، ووجدت الديدان مكاناً لها لتعيش وتتكاثر وهي تختبئ في ثقوب عَمَلتها بنفسها. في هذا الصباح بدا ما كان متماسكاً من الدار وشديد الثبات على مر العقود يتهاوى شيئاً فشياً، هذه الدار التي مظهرها الخارجي يختلف عن باقي دور المحلة بشيء يجعله مميزاً واستثنائياً وغير مكرر.

منذ زمن بعيد، بُنِيَت هذه الدّار الكبيرة من أيّام جدّي الأوّل، جد، جد، جد جدّي، على ضفة نهر الفرات الشمالية، في الشارع الذي سمي بشارع النهر، بسياجه الذي يتبدل بين ليلة وضحاها، ولم تمض على تتويج الملك فيصل الأوّل سوى أيّام معدودة. كان منزلاً كبيراً بطابقين كبيرين، واسعين، وبأبواب خشبية مصنوعة من خشب الصاج البني اللون، وشبابيك خشبية أيّضاً، وقد قطعت بـ "شياش"[1] ومساطر وزخارف حديدية طليت بلون أزرق كلون ماء البحر، مغطاة بزجاج ملون، وضعت عليها ستائر ثخينة، لا يرى الذي خارجها ما يجري خلفها، هذه الشبابيك

(١) شياش: مفردها شيش، القضيب المصنوع من الحديد، لتسليح الصبابة الكونكريتية.

مشرفة على ضفة نهر الفرات القديم الذي يتلألأ الماء فيه عند شروق الشمس وغروبها كما تتلألأ حلي ذهبية تحت وهج الشمس.

مرة طغى الفرات على ضفتيه، ففاضت مياهه التي كانت منذ الأزل تجري، إلّا إنَّها لم تصل إلى تلك الدّار، لقد حوّطتها من كل الجهات ولم تقترب منها. قال سكان المدينة إنَّ هذه الدار مقدسة، والله لم يرد أن يعاقبها كما عاقب أهل المدينة، فهبّت نساء المدينة وهنّ يحملن "طوس"* الحناء المداف بأيّديهن، وأخذن "يملطخن"[1] سياج الدّار بالحناء لقدسيتها، كما كان يعتقد أهل المدينة.

في واجهة الدّار الكبيرة، وفوق الباب الثاني، الصاجي الكبير مباشرة، وضع لوح صبّ من الجبس وعيدان القصب لتمتينه، وقد كتب بشكل بارز عليه سنة بناء الدّار، وقد زيّنت الكتابة تلك بوردتين من كل جهة وردة.

الأشجار التي زرعها الجدّ الأوّل يبست جذوعها، وأغصانها، وتساقط ورقها، فباتت كالرجل الهرم الذي لا يقوى على أيّ حركة. كل شيء فيها قد مات حتى النسغ جف ويبس. فيما تراب أرضها صار كالرماد الأسود المر.

***

(١) ملطخن: لطخ: لوث.

-٢-

انتقلت عوائل أبناء هذا الجدّ الذي لم نره في حياتنا، في يوم أشرقت فيه شمس الجنوب المعروفة بضوئها وحرارتها النازلة على لواء "المنتفك"[١] الهادئ، الوديع، وهو يرتكن على ضفة الفرات الشمالية، وحلّوا في ذلك الدّار، وتوارثوه أبًا عن جدّ، فحفل بالحركة، ونبض الحياة، وهو كما هو في الحجم الكبير، والواسع. وبطلائه الأبيض الذي يجدد كل عام من الداخل، والخارج. حتى أبوابه الكبيرة، والصغيرة، ونوافذه الخشبية المزخرفة بزخارف حديدية، كان حديدها، وزجاجها، يطلى باللون الأزرق، وهذا ما يميز هذه الدّار الكبيرة عن بقية الدور في المحلة، أو في المدينة.

كان هذا الجدّ كما انتقل وصفه إلينا خَلَفًا عن سلفًا، ونقلته لنا جدّتنا العمياء، قوي البنية، إلّا أنَّه يبدو لمن يراه قليل التحمل. عينان براقتان، شرهتان حد احتواء الشيء بنظرة واحدة من وراء نظارته المستديرة الطبية، وإطارها الذهبي، التي تضيف لمهابته مهابة، طويل القامة، وخطواته قصيرة ومتزنة، بشعر رأس ناعم، وحالك السواد، وطويل يصل حد الكتفين، ولحية قصيرة جداً، وشارب طويل معقوفة أطرافه إلى الأعلى، يقول الناس عنه إنَّ الطيور تقف عليه دون أن يميل أحد أطرافه إلى الأسفل. كانت بشرته بيضاء، مشرّبة بحمرة نحاسية. وفوق ذلك يتمتع بغرائز قوية ومثيرة، يبدو لمن يرى نشاطه المتواصل أنَّه لا ينضب منه أبداً، حتى في الليل مع زوجته، وما زال فكره حياً

(١) لواء المنتفك: لواء أصبح فيما بعد مصرفية، ثم سمي محافظة. المنتفك: كانت محافظة ذي قار، ومركزها مدينة "الناصرية" تأسست في تسعينيات القرن التاسع عشر وسميت باسم لواء "المنتفك" باسم العشائر المتفقة فيما بينها تحت رأيّة آل السعدون لاسباب يمكن معرفتها في العودة الى المصادر. ثم سميت باسم بانيها ناصر باشا السعدون، ناصر الاشقر، وعن ذلك يمكن العودة الى المصادر لمعرفة المزيد. بعدها سميت باسم معركة ذي قار التي دارت بين العرب والفرس وانتصر فيها العرب.

نابضاً بالحركة والتغيّر، إلّا أنَّه احتفظ بزوجة واحدة، هي زوجته الكردية التي أتى بها من شمال العراق. ببشرتها البيضاء المشرّبة بحمرة قليلة، وشعر رأسها الأصهب* الطويل. وفمها الصغير، والتي ولدت له خمسة أولاد ذكور، وبنتاً واحدة. ملأوا البيت هم وزوجاتهم وأبناؤهم صخباً وحياة.

في صالة الدّار الكبيرة وضع الجدّ صورة كبيرة ملونة له، داخل إطار مذهّب، رسمها أحد الرسامين في العاصمة بغداد، وقبل الهدم رفعها والدنا من جدار الصالة وأخذها معه إلى بيتنا.

بعد تتويج الملك بأكثر من شهر، جاء ذلك الجدّ الطويل الشعر، والنازل على الكتفين، بسفينة فيها صبيتين ذات بشرة بيضاء، وصبيتين ذات بشرة سوداء، إلى المنزل كخادمات، كي لا يجهد زوجته وزوجات أبنائه في أشغال البيت.

وبعد أسبوع واحد هربت إحدى الصبايا ذات البشرة البيضاء من البيت مع حبيبها الذي جاء إليها خلسة وفرّ بها بعيداً. كانت أوّل عملية إجرامية، كما وصفها الجدّ، في هذه العائلة المسالمة.

وبعد عشر سنوات من ذلك التاريخ ـ أيّ بعد وفاة ذلك الجدّ بأشهر قليلة ـ هربت بنت أحد أبناء العائلة مع حبيبها دون أن يعرفوا شيئاً عنها إلى الآن.

ولمتابعة تاريخ هذه العائلة، وهي عائلة أجدادي الأوائل، علينا أن نتابع مع الجدّة ما بدأته من حكي، وهي تخبرنا عن تلك الجرائم، كما سمّاها جدّي الأوّل، التي حدثت في هذه الدار. روت جدّتي العمياء، والمبحوح صوتها، فقالت:

(ثالث جريمة وقعت بعد ثلاثين عاماً من سكن أفراد تلك العائلة هذه الدّار الكبيرة، هي التي وقعت لإحدى بنات العائلة، حين هربت مع رجل كان يعمل طباخاً في الدار إلى جهة غير معلومة إلى الآن).

هذا ما سمعناه عن تاريخ عائلتنا.

الفضيحة الكبيرة التي ستسمعونها مني، على لسان جدّتي، عن لسان زوجها، الأعرج، النائم في سريره في الغرفة المجاورة، هي التي سنسمعها أنا وأنتم وشقيقي "رياض" أبو حديبة في السطور القادمة.

تابعت جدّتي قولها والمسبحة بين أصابع كفيها ما زالت تطقطق خرزاتها:

(بعد أن تفرق الأخوة الخمسة، ولم يبق في الدّار الكبيرة سوى أبو "أنعم" و"أنعام"، وهو حفيد أحد الأشقاء الخمسة، وأبناؤهم الأخوة الأشقاء الذين تزوّجوا وتفرقوا في أركان العالم، وعاد أبو "أنعم" و"أنعام" إلى مدينتهم الأصلية، المدينة التي تغيّر اسمها ثلاث مرات، وفيها بدأت هذه القصة تنسج خيوطها على يديّ "أنعم" و"أنعام").

وتغوّش كل شيء أمام عيوننا أنا وأخي"رياض"، غاب كل شيء، ثقلت جفوننا، فراحت تنغلق بسهولة.

انطفأ كل حس بالسمع عندنا نحن أحفادها الصبيان "دنيا" و"رياض" حيث تصفنا بالحلوين. توقف الزمن، رحنا في غفوة وسبات، تكلّلنا الأحلام الوردية الجميلة، والأمن والسلام.

****

الفصل الرابع

قالت الجدّة العمياء بعد أن جلسنا على سرير نومها الوثير بالقرب من رجليها المتورمتان التي مدتهما إلى أمام لترتاح من آلامهما المبرحة:

(كان عام ٢٠٠٣ هو العام الفاصل بين ما كان يسميه الجدّ الأول بـ "العملية الإجرامية" التي حدثت في هذا البيت، وبين ما أصبح فضيحة، ولعنة، لهذا البيت في هذه الدّار الكبيرة).

كانت أولى تلك العمليات الإجرامية حسب توصيف الجدّ الأكبر لها هو هروب إحدى الخادمات ذات السحنة البيضاء، حيث جاء بهن ذلك الجدّ ليساعدن نساء العائلة، مع حبيبها الذي فرّ معها إلى مكان مجهول.

والعملية الإجرامية الثانية، وهي الأولى لهذه العائلة، والتي حدثت لمن في هذه الدّار الكبيرة، هو أنَّه بعد عشر سنوات من وفاة الجدّ الأكبر لهذه العائلة بأشهر قليلة، هربت بنت أحد أبناء العائلة مع حبيبها دون أن يعرفوا شيئاً عنها إلى الآن.

والعملية الإجرامية الثالثة التي حدثت لهذه العائلة، وفي هذه الدّار الكبيرة، وقعت بعد ثلاثين عاماً من سكن أفراد هذه العائلة هذه الدّار الكبيرة.

وقعت هذه العملية الإجرامية لواحدة من بنات أحفاد هذا الجدّ، عندما هربت إلى جهة غير معلومة مع رجل كان يعمل طباخاً عند هذه العائلة.

هذه العمليات الإجرامية كما سمّى العملية الأولى الجدّ الأوّل للعائلة، حدثت دون ضجة، أو قيل وقال، ودون أن تكون ضد تعاليم أيّ دين.

حدثت الأولى لفتاة ليست من العائلة، إنَّها خادمة لا تتصل بالعائلة بوشيجة دم، أو مصاهرة. وحدثت الثانية والثالثة لفتيات

من العائلة نفسها، أي لأحفاد الجدّ الأول المؤسس لهذه العائلة، أما الرابعة فقد حدثت لجدّة "أنعم" و"أنعام" الغجرية، إلّا إنَّ هذه العائلة المتكونة من الأخوة الأربعة، وأحفادهم، لم يحرّك أيّ شخص منهم لسانه بذكر هذه الحوادث، أو العمليات الإجرامية، ولم يعلنوا ذلك للناس فبقيت طي الكتمان والسرية، وسارت أمور العائلة اليومية كما في كل يوم وكأن شيئاً لك يكن.

وعندما جاء عام ٢٠٠٣، كانت الحادثة الأولى من نوعها، ولا نقول إنَّها عملية إجرامية، لأن الجدّ الأول قد شبع موتاً، و"هَرَتْ"عظامه، وإنما سموها الناس، أو من سمع بها، لعنة وقعت على رؤوس أهل الدّار الكبيرة، أو هذه العائلة، على الرغم من أنَّ لا أحداً قد بقيّ في تلك العائلة، لأن أحفاد أولئك الأبناء قد وُزِعُوا على جهات العالم الأربع، وانقطعت أخبارهم عن عائلة أبي" أنعم" و"أنعام".

كانت هذه اللعنة هو ما سماها البعض من رجال الدين المتشددين بـ "زنا المحارم"، وقد تطور إلى أن أصبح زواجاً معترفاً به من الآباء وبعض الأقارب والناس، وبعض رجال الدين، وغير معترف به من بعض رجال الدين الآخرين، والبعض الآخر من الناس، وتمخّض عن ولادة أبناء وبنات.

اللعنة هذه التي حدثت جراء "زنا المحارم" جرّت خلفها ويلات وويلات، إذ إنَّها أصابت بعض الأبناء والبنات بعاهة دائمية، والكثير منها أودت بصاحبها إلى الموت).

هكذا قالت الجدّة، وتغوّش كل شيء أمام عيوننا أنا وأخي"رياض"، غاب كل شيء، ثقلت جفوننا، فراحت تنغلق بسهولة.

انطفأ كل حس بالسمع عندنا نحن أحفادها الصبيان "دنيا" و"رياض" حيث تصفنا بالحلوين، وتوقّف الزمن، رحنا في غفوة وسبات، تكلّلنا الأحلام الوردية الجميلة، والأمن والسلام.

***

الفصل الخامس

"كتاب الليالي"

-١-

عندما دخلت أنا بعد أخي"رياض" دارنا، وقد دخل والدنا قبلنا، كان وقت الظهر قد حل، إذ الشمس صارت فوق رؤوسنا في سمت السماء وهي ترسل أشعتها الحارة، ونورها الذي يغشي الأبصار، فأحاطت بكل بناء، وكل شيء تحتها، حتى الجوامع والمساجد، والمآذن، والطرقات، والمدارس والنهر، كل شيء، كل شيء.

قال والدنا بعد أن خرج من غرفة الجدّة العمياء ودخل غرفته وجلس على سرير نومه المرتّب النظيف:

- إنَّ كتاب "ألف ليلة وليلة" كتاب ضخم، وهو بأربعة أجزاء. ويعدّ مصدراً رئيسياً من مصادر الحكاية العربية القديمة.

تساءل مع نفسه وكأنَّه يسأل أخي "رياض" أبو حديبة: ما الذي جعله مهماً لدى جدّنا فيحتفظ به في هذا الكيس مع الكتب، والسجل، وهذا القرص؟

وعندما لم يسمع أيّ جواب من أولاده، نحن، إذ استقر رأيه، هكذا فكر أبو حديبة، بأنه يحدث نفسه، تابع القول:

- هل لأنَّه أوّل كتاب حكائي عربي كتب بأسلوب لم تعهده العرب في كتاباتهم، إذ تتوالد مجموعة من الحكايات من حكاية واحدة؟ كالعائلة الممتدة عمودياً كعائلتنا، أو مثل عنقود العنب.

أم لأنَّ بعض الإسلاميين المتطرفين في مصر أرادوا إتلافه، و"إعدامه"، أو "حرقه"، لأنَّه حسب إدعائهم يخدش الحياء العام؟

وابتسم أبي دون أن يخرج من فمه أيّ صوت، بعد نطقه آخر كلمة.

الأسباب كثيرة والهدف واحد، إلّا إنَّنا لا نعرف الهدف الذي يقف وراء حفظ الكتاب هذه السنين. أردف والدنا القول هذا.

عندما حمل والدنا الكتاب، بأوراقه الصّفر، وغلافه شبه الممزق، من الكيس، سقطت وردة حمراء ذابلة منه ولا يعرف مكانها من الكتاب. فراح يبحث في صفحاته المصفرّة، ورقة، ورقة، عن بقايا اللون الأصلي للوردة المرتسم على الورق حتى وقع نظره على ورقتين متقابلتين قد غمق لونهما فيبستا من رطوبة أصابتهما.

قال بصوت خافت:

ـ حتماً إنَّها رطوبة أحدثتها "طراوة" وبلل الوردة هذه.

كانت الصفحة تحمل الرقم(٤٢) من المجلّد الأول لكتاب ألف ليلة وليلة، والكتاب مطبوع بمصر من قبل (سعيد علي الخصوصي) صاحب المطبعة والمكتبة السعيدية بجوار الأزهر بمصر، ومكتوب على تلك النسخة أنَّها (مقبولة ومصححة على النسخة المطبوعة بمطبعة بولاق الأميرية بمصر سنة ١٢٨٠ هـ). وقد كتب في آخر صفحة من المجلد الرابع ("أما بعد" حمداً لله مسدي النعم ومفيض إحسانه على الملوك والخدم والصلاة والسلام على من هو للأنبياء. وعلى آله الأبرار وصحبه الأخيار.

فقد تم طبع هذا الكتاب الجامع من محاسن الأخبار العجب العجاب المتضمن لفنون من النوادر والآثار والآداب. الشارح لأحوال العصور الوسطى الإسلامية، والممثل لأخلاق أهلها ومعاملتهم وعاداتهم الأهلية، وبالجملة فهو تحفة لمطالعه، وطرفة لقارئه، ونزهة لسامعه. وقد طبع بغاية الإتقان، وصحح بقدر الإمكان، وذلك بالمطبعة السعيدية على نفقة مكتبتها التي مركزها بشارع الصنادقية بجوار الأزهر الشريف بمصر إدارة "حضرة سعيد أفندي علي الخصوصي" ولاح بدر تمامه، وفاح

حسن ختامه، في أوائل شهر ربيع الأول سنة ١٣٥٤ هجرية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية آمين).

هذا كل ما موجود من بيانات تخص هذا الكتاب الذي وجدناه في الكيس خلف أحد الجدران التي ضربتها "كيلة" الشفل فسقط متناثراً طابوقه الأصفر القديم على الأرض، وسقط الكيس، وتطاير الغبار الذي خلّفه في جو المكان، وامتد ليغطينا، أنا وأخي "رياض" أبو حديبة، فملأ عيوننا وباقي أجسامنا، فكنا بالكاد نرى الأشياء بوضوح.

راح والدي يقرأ ما روي في الليلة (١٣) التي تقع في الصفحة تلك. كانت الكتابة السوداء ممحية إلى حد ما، وبصوت سمعته أنا وأخي "رياض"، حتى وصل إلى قوله: (فقال يا ابن أخي إنَّ ولدي هذا كان من صغره مولعاً بحب أخته وكنت أنهاه عنها وأقول في نفسي إنَّهما صغيران فلما كبر أوقع بينهما القبيح، وسمعت بذلك ولم أصدق ولكن زجرته زجراً بليغاً وقلت له احذر من هذه الأفعال القبيحة التي لم يفعلها أحد قبلك ولا يفعلها أحد بعدك، وإلا نبقى بين الملوك بالعار والنقصان إلى الممات وتشيع أخبارنا مع الركبان وإيّاك أن تصدر منك هذه الأفعال فأنّي أسخط عليك وأقتلك ثم حجبته عنها وحجبتها عنه وكانت الخبيثة تحبه محبة عظيمة وقد تمكن الشيطان منها فلما رآني حجبته فعل هذا المكان الذي تحت الأرض خفية، ونقل فيه المأكول كما تراه واستغفلني لما خرجت إلى الصيد، وأتى إلى هذا المكان فغار عليه وعليها الحق سبحانه وتعالى وأحرقهما ولعذاب الآخرة أشد وأبقى).

كان غبار الكتب هو الذي غيّر لون يد والدنا، فأحالها إلى أن تكون بلا لون محدد، هذا الغبار المتكوّن من هباء من الحبر الأزرق، والأحمر، والأسود. ومن الغبار الذي يتطاير عاليا كسرب طيور جفل من صوت طلقة صياد غير ماهر. الغبار هذا المتطاير من الدّار الكبيرة التي تُهدّم هذه اللحظة.

أغلق والدي الكتاب و"صفن"[1] كمن يفكر بشيء ما، سكت كل شيء حولنا. لا صوت. لا نأمة حتى، عندها تساءلت مع نفسي: ما الذي أعيا والدنا من هذا القول حتى "صفن" هذه "الصفنة" الطويلة؟ وقبل أن أقول شيئاً آخر، نهض من مجلسه وقال لنا: هيا بنا إلى البيت.

(١) صفن: يشغل تفكيره بشيء ما. وفي العربية الفصحى لا تعطي هذا المعنى ، وانما معناها هو: وَ(الصَّافِنُ) مِنَ الْخَيْلِ الْقَائِمُ عَلَى ثَلَاثٍ قَوَائِمَ وَقَدْ أَقَامَ الرَّابِعَةَ عَلَى طَرَفِ الْحَافِرِ.). أيّ أن تفكيره مشغولاً بشيء ما.

عذاب الآخرة وهو أشد وأبقى وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفي ليلة ١٣) قالت بلغني أيها الملك السعيد أن الصعلوك قال للصبية والجماعة والخليفة وجعفر يستمعون الكلام ثم أن عمي ضرب ولده بالنعال وهو راقد كالفحم الاسود فتعجبت من ضربه وحزنت على ابن عمي حيث صار هو والصبية فحما أسود ثم قلت بالله يا عمي خفف الهم عن قلبك فقد اشتغل سري وخاطري بما قد جرى لولدك وكيف صار هو والصبية فحما أسود اما يكفيك ماهو فيه حتى تضربه بالنعال فقال يا ابن أخي أن ولدي هذا كان من صغره مولعا بحب أخته وكنت أنهاه عنها وأقول في نفسي أنهما صغيران فلما كبرا أوقع بينهما القبيح وسمعت بذلك ولم أصدق ولكن زجرته زجرا بليغا وقلت له احذر من هذه الفعال القبيحة التي لم يفعلها أحد قبلك ولا يفعلها أحد بعدك والا تبقى بين الملوك بالعار والنقصان الى الممات وتشيع أخبارنا مع الركبان وإياك أن تصدر منك هذه الفعال فاني أسخط عليك واقتلك ثم حجبته عنها وحجبتها عنه وكانت الخبيثة تحبه محبة عظيمة وقد تمكن الشيطان منها فلما رآني حجبته فعل هذا المكان الذي تحت الارض خفية ونقل فيه الماكول كما تراه واستغفلني لما خرجت الى الصيد وأتى الى هذا المكان فغار عليه وعليها الحق سبحانه وتعالى واحرقهما ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ثم بكى وبكيت معه وقال لي أنت ولدي عوضا عنه ثم أني تفكرت ساعة في الدنيا وحوادثها من قتل الوزير لوالدي وأخذ مكانه وتلف عيني وماجرى لابن عمي من الحوادث الغريبة فبكيت ثم أننا صعدنا ورددنا الطابق والتراب وعملنا القبر كما كان ثم رجعنا الى منزلنا فلم يستقر بنا الجلوس حتى سمعنا دق طبول وبوقات ورمحت الابطال وامتلأت الدنيا بالعجاج

***

-٢-

كان كل شيء على جانبينا، ونحن نجلس داخل سيارة أبي، تمر مسرعة وبالكاد تتضّح لعيوننا ، بسبب دخول غبار هدم الدار فنعرف أن هذا باب دار، وذاك شباك، وتلك شجرة، وذاك إنسان يسير على الرصيف.

كان والدي يقود السيارة بسرعة عالية حتى أوشكت على الانقلاب. وكان كل شيء فيها يهتز بفعل تآكل أسفلت الشارع، والمطبات، والحفر. ظلت تتحرك يميناً وشمالاً، مثل أفكارنا التي عصفت بها رياح هذا الكيس، شَرَعنا أنا وأخي نشغّل عقولنا الصغيرة بما فيها. فيما اصّفرت وجوهنا الصغيرة، غادرتها الدماء كلياً، وانعكست هذه الوجوه الصفر في مرآة السائق، إلّا أنَّ والدنا رغم ما رآه في المرآة لم يبدُ عليه التأثر، فتماسكنا بأيّدينا إلى أن وصلنا إلى دارنا بأعجوبة.

عندما وصلنا إلى الدار، حدث ما لم يكن في الحسبان، إذ توجّه أبي مسرعاً إلى غرفة جدتي العمياء، بصوتها المبحوح النادر السماع، والتي صار لها أكثر من عمرنا وهي جليسة هذا المكان في فراشها الممدود فوق السرير الخشبي في الغرفة التي فيها الحمامات الخاصة بها، كما لزوجها حمامات تشبهها في غرفته كذلك، جلس قبالتها بالضبط، وراح يمطرها بالأسئلة عن جدّه الأعلى.

دخلنا الغرفة وراءه مباشرة، سمعناه يسألها قائلاً:

- جدّتي حدثينا عن جدّي الأعلى والد جدّي.

كانت هي كالميتة. لا صوت ولا أيّ شيء.

كرر عليها السؤال مرة أخرى، لم تجب. كانت تنقل حبات المسبحة بإصبعها الإبهام وهي تبسمل مع نفسها رافضة أن تجيب على أسئلة حفيدها الوحيد الجالس بالقرب من حضنها، ركبتاه تلامس ركبتيها، وشفتاه قرب أذنها.

كرر والدنا السؤال وهو يفتح الكتاب على الصفحة المتيبسة والتي فيها يبوسة رطوبة الوردة التي سقطت على الأرض. قال لجدّته:

- جدّتي رجاءً أخبريني عن قصة هذا الكتاب وهذه الوردة الذابلة.

مازالت جدّتي العمياء ساكتة، صامته، لم تتكلم سوى أنَّها تردد مع نفسها البسملة، وتصرخ بين الفينة والأخرى: العار، العار، أو بشيء آخر لا نعلمه، بفمها الصغير، الأدرد، الخالي من الأسنان، والذي كان السبب في أن نملك أنا وأخي أبو حديبة أفواهنا الصغيرة، حيث ورثناها عن هذه الجدّة العمياء، وشعر رأسها الذي عملت منه "گصايب"[1]، كان أبيضًا وبرائحة المسك.

هذا ما كان من جدّتي حين سألها وبإلحاح والدنا عن سبب تواجد هذه الكتب وهي محفوظة في كيس الخيش. ظلت صامتة وهي تبسمل مع نفسها، بشفتين تتحركان بسرعة، فيما هي ترتجف من الغضب.

كنا نقف خلف والدنا الجالس بين يدي جدّته العمياء الجالسة فوق سريرها الخشبي، وهي تبسمل، وتحوقل. فيما حبّات مسبحتها ذات المئة حبة وحبة تتساقط على بعضها برتابة حركة إبهامها وهي تحرك تلك الحبات الصغيرة فتنزل الواحدة بعد الأخرى بتناغم كحبات ماء المطر الذي ينضح من سقف مصنوع من "البواري"[2] والقصب إلى الأرض.

هذا ما حدث لسؤال والدنا لجدّته التي يدعوها بأمه عن سبب حفظ كتاب ألف ليلة وليلة، والكتب الأخرى.

---

(١) گصايب: جمع قصيبة وهي الضفيرة.

(٢) البواري: جمع بارية، وهي محاكة من القصب المكسور تستخدم لبناء الصرائف، أيّ الغرف، أو للفراش كحصيرة.

الفصل السادس

"القرص"

-١-

في عصرٍ تخلى عن كل شيء مطبوع على الورق، كالكتاب مثلاً، على الرغم من أن مصادر هذه الحكاية، أو الرواية، كانت الكتب القديمة، فإنَّ القرص اللدائني الذي عثرنا عليه في كيس الخيش سيكون مصدراً مهماً من مصادر هذه الرواية التي تتحدث عن زواج شقيقين هما "أنعم" و"أنعام".

هذا ما رددته من قول بعد أن سمعته من جدّتي العمياء، ليلة أن رجعنا الى البيت من الدار التي تُهدم وأنا أضع جسمي على الفراش، بعد أن حكت لنا جدّتي الحكاية حتى ثقلت أجفاننا من النعاس.

أخذ والدي القرص اللدائني إلى محل بيع وتصليح الحاسبات الصغيرة. القرص الذي لم نر مثله في حياتنا أنا وأخي الأحدب، ولا أبي.

نظر الرجل صاحب المحل، والذي قضى مع والدنا الخدمة العسكرية في فصيل واحد، ووقتاً طويلاً في الخفارات الليلة، إلى وجه والدنا طويلاً، بعد أن تجاذبا ذكرياتهما أيّام العسكرية، وبدون مقدمات قال لوالدنا والقرص بيده، فيما كيس النايلون الأسود قد رماه جانباً:

- إنَّ هذا القرص يسمى قرص "سي دي"، وكان يستعمل قبل أكثر من سبعين عاماً في الحاسبات ليسجل عليه أيّ شيء، كتابة أو صورة.

وظل الرجل يحدث والدنا كثيراً عن "السي دي" هذا الذي وجدناه مع بعض الكتب القديمة.

راح تفكيرنا أنا وأخي "رياض" أبو حديبة، يتيه في عوالم هذا "السي دي" اللدائني الصغير. كيف يحتفظ بهذه الكتابات والصور في داخله وهو بهذا الحجم؟

أخرجتني حركة من والدنا بكوعه الذي ضربني على صدري، فسمعته يقول لصاحب المحل الذي نزع نظارته الطبية وأخذ يمسحها بقطعة كلينيكس:

- وهل لك أن تشغّله؟

سأله والدنا وهو ينظر إلى القرص الذي تركه صاحب المحل على منضدة العمل.

قال صاحب المحل:

- تعال غداً، بعد أن أجد حاسبة من النوع القديم في المخزن لأشغّل هذا "السي دي" الذي لا يستعمل الآن.

كان "السي دي" كما روى والدنا شيئاً غريباً عن أعيننا، ولم نعرف شيئا عنه، وكنا بالكاد نعرف أنَّه صنع من اللدائن التي تصنع منها أشياء كثيرة، وفي وقتنا نحتفظ بالأشياء مسجلة على فلاش صغير جداً بحجم ظُفر الإصبع الصغير.

ابتهج والدنا كثيراً لوعد صاحب المحل، صديق والدنا منذ أيّام العسكرية، وترك "السي دي" عنده على أن نأتي يوم غد لنجد الجهاز الذي يعرضه جاهزاً أمامنا.

خرج ثلاثتنا من المحل، وعندما وصلنا إلى البيت، أسرع والدنا إلى غرفة جدّتي العمياء، والتي يدعوها بأمه.

فكرت عما يوجد فيه من صور وكلام مخزون كل هذه السنين. كان فيما مضى هو من ثقافة الأجداد، أما الآن فقد أصبح "الفلاش" الصغير الذي بمساحة ظُفر الإصبع يخزن من المعلومات أضعاف ما كان هذا "السي دي" يخزنه، كما ذكر صاحب المحل.

خرج والدي من غرفة جدّتنا ووجهه لا يمكن أن نقرأ شيئاً ما فيه، وليس فيه تفسير لأيّ معنى سوى الغضب الممزوج بالحزن، وكما أظن، أن جدّتي قد أغضبته لأنها لم تقل له شيئاً بعد أن غضبت عليه يوم أن كذّب حديثها.

***

-٢-

في صباح اليوم التالي ذهب ثلاثتنا، أنا وأخي "أبو حديبة"، ووالدنا بسيارته إلى محل بيع الحاسبات ومعداتها الواقع في وسط المدينة.

وجدنا أن صاحب المحل قد جلب حاسوباً منضدياً يشبه السجل، فيه شاشة تقف منتصبة على لوحة مفاتيح بحجمها تمتد أفقياً. قال لنا:

- هذه الحاسبة تسمى حاسبة "لاب توب". كانت متداولة كثيراً بين الناس، وقبل حوالي خمسين عاماً انقرضت ولم تعد في الاستخدام.

ثم أدخل القرص اللدائني في فتحة جانبية في اللاب توب، فدار القرص، وبدأ الفيلم القديم يعرض على الشاشة الصغيرة.

تابع صاحب المحل قوله وهو يشاهد ما يعرض على شاشة الحاسوب:

- هذا الحاسوب كان يستعمل قبل أكثر من سبعين عاماً في كتابة وعرض كل شيء، ليس كما الآن في أيّ مكان نستطيع أن نعرض أيّ شيء، فوق باب الثلاجة، أو على سطح الكاونتر، أو سطح الطبلة، أو الحائط. وهو يسجل الكتابة بالصوت لا بضرب مفاتيح خاصة، مثل هذه الأزرار المعدة للكتابة وإعطاء الأمر والإيعاز.

كان ما يعرض أمامنا فيلم سينمائي، أو هكذا سمعت صاحب المحل يقول عنه، أيّ أنَّه يعرض في دور السينما المنقرضة والتي لم نرَ واحداً منها، وقد انقرضت السينما وصناعتها قبل أكثر من ثلاثين عاماً، ودور السينما هي قاعات كبيرة – شرح لنا والدنا ذلك – يجلس فيها الناس ليعرض أمامهم على شاشة كبيرة وبيضاء مثل هذا الفيلم.

كان الفيلم المسجل على "السي دي" إيطالي، وقد أرّخ العمل كما يعرض على الشاشة الصغيرة للاب توب بعام ١٩٧٠، أي أقدم من زماننا بمئة وثلاثين عاماً.

قال صاحب المحل:

- اسمه كما مكتوب على القرص بالعربي"الطريق إلى سالونة"، وهو مترجم للغة العربية.

كان الفيلم يتحدث عن قصة حب بين أخ وأخته، أو هكذا أريد لعلاقتهم العائلية أن تكون، فتصل حد الممارسة الجنسية بينهما.

عندما وصل الفيلم لهذا الحد صاح والدنا بصاحب المحل أن يوقف التشغيل.

صاح أخي بصوته الأنثوي بوالدنا قائلاً:

- أبي لقد سمعنا من جدتي مثل هذا القصة التي حدثت بينهما، لقد حدثت بين...

أسرع والدنا وأغلق فم أخي "رياض" وقال لنا:

- هيا إلى البيت.

وراح يجرنا إلى السيارة.

تركنا القرص عند صاحب المحل وخرج ثلاثتنا. فيما "موبايل" والدنا ما انفك عن الرنين بنغمة محببة معروفة لدينا، أخرجه من جيب بنطاله، ضغط على زر الغلق، وأعاده إلى مكانه في الجيب الجانبي للبنطلون.

كان صوت جدّتي ما زال يرن في أذاننا كما لو أنَّها للتو تخبرنا عن حب الأشقاء، أجدادنا، قبل أكثر من مئة عام مضت. أذكر أنَّها أخبرتنا قائلة:

(إنَّ والد ووالدة زوجها أشقاء من أب واحد، وأم واحدة. قد أحبا بعضهما، وتزوجا، وأنجبا زوجها الذي كان هو الوحيد الذي بقي على قيد الحياة، وقد مات شقيقه الصغير عندما كان طفلاً، لقد تزوجني، ولم أعلم بذلك إلّا قبل دقائق من انتقال روح ذلك

الأب إلى العالم الآخر، وقد تبعته زوجته "أنعام" بعد يوم من وفاته، بعد أن رقصا الرقصة الغجرية في حفل المزرعة).

وتغوّش كل شيء أمام عيوننا أنا وأخي"رياض"، غاب كل شيء، ثقلت جفوننا، فراحت تنغلق بسهولة.

انطفأ كل حس بالسمع عندنا نحن أحفادها الصبيان "رياض" و"دنيا" حيث تصفنا بالحلوين، وتوقف الزمن، رحنا في غفوة وسبات، تكلّلنا الأحلام الوردية الجميلة، والأمن والسلام.

****

الفصل السابع

-١-

فيما كان الجو حاراً، وداخل سيارة أبي يفور فيدفع بمسامات جسمينا إلى أن تنزّ العرق الدبق، وتبثّ رائحة نتنة، مقرفة، فيما كان والدنا وهو يقود السيارة بسرعة عالية يفكر بكيس الخيش الذي وضعناه في حقيبة السيارة حتى وصلنا الدار، فترك والدي السيارة بسرعة، بعد أن أطفأ محركها الساخن، وذهب الى غرفة جدّتي.

جدّتي، التي هي جدّة والدي، امرأة قويّة البنية، قوية البصيرة، فاقدة البصر، نشطة الذاكرة والخيال الذي يتسع لرواية أكبر السوالف والحكايات، إلّا إنّها في هذه المرة كانت غير سخية مع والدنا الذي حاول أن يستدرجها بالكلام، فخرج من غرفتها وهو شبه غاضب منها، وذهب إلى غرفة جدّه الأعرج، المريض، الذي تساعده إحدى النساء الكبيرات، وتعتني به، وتغيّر حفاظاته بين فترة وأخرى بعد أن تتغيّر رائحة جسمه السمين الذي كثيراً ما يصاب بالبكتريا فيبقى يحك وينهش حتى تضع الخادمة المرهم في المكان المصاب.

ركضنا خلفه، كان جواب الجدّ لوالدنا، بعد أن سأله عن الأشياء التي ضمها كيس الخيش، جازماً: أنا لا أرى الأشياء بوضوح تام.

جدّي هذا الذي على العكس من زوجته في كل شيء، وهو جدّ والدي. خفيف شعر الرأس، وأبيضه كالفضة، مع صلعة صغيرة في منطقة "يافوخه"[1]، وقد وضع طاقية بيضاء لتغطي صلعته. هو على فراش المرض منذ سنوات قبل أن نولد أنا وشقيقي،

١ - يافوخه: فجوة مُغَطّاة بغشاء، تكون عند تلاقي عظام الجمجمة وهما يافوخان: يافوخ أماميّ ويافوخ خَلْفيّ.

أعرج الساق من الولادة. جراء هذه اللعنة الأبدية السخيفة التي طالت كل مواليد هذا البيت، كما يقول الناس ويؤمنون.

كنا نقرأ له، نحن أحفاده، كل شيء مكتوب، لأنَّه قد نزل الماء الأبيض في عينيه، "فتغوّشت"[1] الصور أمامهما. لقد سكت "ديك" جدّتي عن الصياح، هكذا كنا نسميه، وهو منكمش على نفسه على سريره الخشبي.

في ليلة ذاك اليوم، وعندما كنّا، أنا وأخي بحدبة ظهره التي لا تنفك من أن تبتعد عنه قيد أنملة، بدأت جدّتي روايتها لحكاية والد زوجها الميت "أنعم" وشقيقته "أنعام".

في يوم ما، كانت وهي تحكي لنا، أنا وأخي التوأم بحدبته التي تجعل جسمه يميل إلى أحد الجوانب وهو يجلس على السجّادة الملونة التي تغطي أرضية الغرفة في يوم شتائي ممطر، رافعاً رأسه ليراها، فيما هي تجلس على السرير، وقد مدّت قدميها فوق الفراش القطني، والسماء مظلمة سوداء قد اختفت فيها النجوم كلياً، ومزاريب سطح دارنا ينهمر منها ماء المطر بقوة مخيفة، وينزل كالشلال. وما زال الليل ساكناً، وهو يقترب من الانتصاف، ووميض البرق يضيء الفضاء وينطفأ بسرعة. إنَّها تتحدث بلسان والد زوجها "أنعم"، كأنها شهرزاد معاصرة تحكي لنا الحكايات، لتنسي شهريار عقوبة الإعدام على النساء، وهي تريد لنا أن نعرف الكثير عن أجدادنا الأوائل.

جدّتي وهي تروي لنا بصوت والد زوجها، وكأن ما حدث يحدث للتو أمامنا كشريط سينمائي، أو فديو، ونحن نصدّق كل كلمة تقولها، فيما يأتي إلينا أنا وأخي بحدبته العالية، صوت رئتيها كأنه خرخاشة طفل رضيع [2]. قالت في ذلك المساء الأسود الداكن والذي كانت صفحتها قد خلت من النجوم والقمر:

---

١ - تغوّشت: غشي النظر في العينين.

٢ - الخرخاشة لعبة للاطفال يخرج منها صوت، والصوت هذا يشبهه الصوت الذي يسمع من الصدر.

(النوم في صيف حار، والتيار الكهربائي مقطوع، كالنوم في جهنّم، جهنمنا الليلي. لا فرق بين الاثنين.).

تابعت القول على لسان والد زوجها الأعرج، عن أبيه "أنعم":

(نحو الساعة الثانية عشرة ليلاً، وبعد أن عدت من دار السينما إلى البيت، وكان جو لندن مضبباً، والرؤية محجوبة كلياً، وقد انتهيت من مشاهدة فيلم "الطريق إلى سالونا" في إحدى دور السينما في المدينة، وفي غرفتي الملاصقة لغرفة شقيقتي "أنعام"، وكان بينهما باباً مسدوداً دائماً، وحتماً إنَّها في الغرفة كما خمّنت، خلعت كل ملابسي، وتركت جسدي اللاهب من شدة شبقي، وحرارة جو الغرفة التي أحس به الآن تبثه سخانات الماء المشعة، ينهدّ على سرير الخشب بقوة، عارياً من كل شيء، ورحت في نوم مضطرب، وكان للاضطراب مخالباً قاتلة تجوس في لحمي.

تقلّبت في فراشي أكثر من مرة مثقل العينين. كانت الغرفة هادئة من كل شيء، حتى النجوم في قبة السماء قد غيّرت مكانها باستمرار، فتراءت لي أمي، ربما شقيقتي، لا أتبيّنها بصورة واضحة، عارية، وأنا أركض خلفها وبيدي سكيناً تلمع تحت ضوء مصباح الغرفة التي دفعت بيدي بابها الخشبي فانفتح على مصراعيه أمامي.

قال لي صديقي الأسمر، وكان يحثني على ذلك:

- لا تهتم لعُرْيَها، إنها تخدعك، تكذب عليك، عليك أن تقتلها فور تمكنك منها، اقتلها كما قتل الصياد جودر أمه).

وتغوّش كل شيء أمام عيوننا أنا وأخي"رياض"، غاب كل شيء، ثقلت جفوننا، فراحت تنغلق بسهولة.

انطفأ كل حس بالسمع عندنا نحن أحفادها الصبيان "رياض" و"دنيا" حيث تصفنا بالحلوين، وتوقف الزمن، رحنا في غفوة وسبات، تكلّلنا الأحلام الوردية الجميلة، والأمن والسلام.

***

-٢-

انطفأ كل شيء في غرفة جدّتنا، كأن ما قبل الخلق قد بدأ للتو. كل شيء مظلم، وحالك الظلام، وبات الكلام حراماً، وتمدّدت السكينة في الغرفة كما يتمدّد أخطبوط في جحر أظلم في عمق البحر.

قالت جدّتنا وهي تنظر إلى نقطة في الجدار الذي أمامها دون أن تبصره، أو تبصرنا:

((بدأ صاحبه يقرأ ما حفظه من أسطورة الصياد جودر في ألف ليلة وليلة، إذ قال:

(يقول التاجر المغربي لـ "جودر":

أعلم أنَّني متى عزمت ألقيت البخور نشف الماء من النهر وبان لك باب من الذهب قدر باب المدينة بحلقتين من المعدن فانزل إلى الباب واطرقه فإنك تسمع قائلاً يقول: من يطرق باب الكنوز وهو لم يعرف أن يحل الرموز؟ فقل أنا جودر الصياد ابن عمر فيفتح لك الباب ويخرج لك شخص بيده سيف ويقول لك: إن كنت ذلك الرجل فمدَّ عنقك حتى ارمي رأسك، فمدَّ له عنقك ولا تخف فإنَّه متى رفع يده بالسيف وضربك وقع بين يديك وبعد مدة تراه شخصاً من غير روح وأنت لا تتألم من الضربة ولا يجري عليك شيء، وأما إذا خالفته؛ فإنَّه يقتلك، ثم إنَّك إذا أبطلت رصده بالامتثال. فادخل حتى ترى باباً آخر فاطرقه يخرج لك فارس راكب فرس وعلى كتفه رمح فيقول: أيّ شيء أوصلك إلى هذا المكان الذي لا يدخله أحد من الإنس ولا من الجان؟ ويهز عليك الرمح، فافتح له صدرك فيضربك ويقع في الحال فتراه جسداً من غير روح وإن خالفت؛ قتلك، ثم ادخل الباب الثالث يخرج لك آدمي وفي يده قوس ونشاب ويرميك بالقوس فافتح له صدرك ليضربك ويقع قدامك جسداً من غير روح وإن خالفت؛ قتلك، ثم ادخل الباب الرابع واطرقه يفتح لك، ويخرج لك سبع عظيم

الخلقة ويهجم عليك ويفتح فمه ويريك أنه يقصد أكلك فلا تخف ولا تهرب منه، فإن وصل إليك فأعطه يدك فمتى عض يدك؛ فإنه يقع في الحال ولا يصيبك شيء ثم اطرق الباب الخامس يخرج لك عبد أسود ويقول لك من أنت قل له أنا جودر فيقول لك إن كنت ذلك الرجل فافتح الباب السادس، فتقدم إلى الباب وقل له: يا عيسى قل لموسى يفتح الباب، فادخل تجد ثعبانين أحدهما على الشمال والآخر على اليمين، وكل واحد يفتح فاه ويهجمان عليك في الحال، فمد إليهما يديك فيعض كل واحد منهما في يد وإن خالفت؛ قتلاك، ثم ادخل الباب السابع واطرقه تخرج لك أمك وتقول لك مرحباً يا ابني تقدّم حتى أسلم عليك فقل لها ظلي في مكانك بعيداً، اخلعي ثيابك، فتقول: يا ابني أنا أمك، ولي عليك حق الرضاعة والتربية، كيف تعريني؟ فقل لها إن لم تخلعي ثيابك؛ قتلتك، وانظر جهة يمينك تجد سيفاً معلقاً، فخذه واسحبه عليها وقل لها اخلعي فتصير تخادعك وتتواضع إليك فلا تشفق عليها حتى تخلع لك ما عليها وتسقط، وحينئذ تكون قد حللت الرمز وأبطلت الأرصاد، وقد أمنت على نفسك، فادخل تجد الذهب).

وهذا ما كان مدوناً في كتاب ألف ليلة وليلة عن أسطورة جودر، كما قالت جدّتي، وهي تحرك ساقيها الممدودتان على فراشها الوثير الذي ترتبه هي بنفسها.

تابعت جدّتي حكيها، وكنا نحن نستمع لها كما يستمع مجلس رجال لمن يجلس على المنبر. قالت وهي تنقل كلام زوجها عن أبيه:

(كان صديقي الأسمر يقف خارج الدار، وهو ينتظر أن أعود له والسكين ملطخة بدمائها كقصاب انتهى للتو من نحرِ ذبيحته. قال لي وهو يزيّن لي فعلتي التي أنا مُقْدِم عليها: سنأخذ "المال" ونهرب إلى مدينة أخرى حيث لا يجدنا أحد.

فيما كانت شقيقتي، وربما أمي، لا أعرف أيّهما كانت، جالسة في غرفتها تحرس الخزانة التي خبّأت النقود والحلي الذهبية فيها كما يحرس التنين باب المغارة.

كان صديقي الأسمر يناولني السكينة ذات النصل الحاد، وهو يحثّني على ذبحها من الوريد الى الوريد، وأخذ "المال"، والهرب بعيداً.

تقدمت نحو أمي، أو شقيقتي، والسكينة بيدي تلمع وهي مشرعة لقتلها. كانت عارية من كل شيء يسترها، لا شيء يسترها وهي تقف أمام الخزانة لتحرسها.

صاحت بي زاجرة وقد وضعت يديها على المنطقة الوسطى الحساسة، فيما كان المثلث الذي يصنعه نهداها قد تضاءل كثيراً بفعل ضغط زنديها عليه، فأحببت أن ألمسهما بيديّ هاتين التي تحاول قتلها:

- كيف تدخل الغرفة وأنت تعلم بأنّي عارية؟

كان جسد شقيقتي، أو أمي، كأنَّه تمثال روماني منحوت من المرمر المصقول، بضّ، ناعم الملمس، وكان ثدياها نابضين بالحياة والشبق، فيما خصرها كغصن شجرة تفاح، نحيلاً.

تقدمت نحوها شاهراً سكينتي"الباشطة"[1] وهي مشرعة للغرز في مكان ما من جسدها، ثقلت قدماي وأنا أتقدم منها وهي تصرخ بي: قف مكانك، إلّا أنَّني ما زلت أتقدم صوبها بخوف ووجل، وقلبي يخفق في صدري بسرعة كطائر جريح، حتى إنّي سمعت دقاته عالياً، كنت خائفاً من أيّ قطرة دم تنزل منها.

١ - الباشط: المسنون جيداً.

ومرادي أن اعلمك كيف تصنع حتى تبلغ مرادك فقال له اعلم اني متى عزمت والقيت البخور نشف الماء من النهر وبان لك من الذهب قدر باب المدينة بحلقتين من المعدن فانزل الى الباب واطرقه طرقة خفيفة واصبر مدة واطرق الثانية طرقة أثقل من الاولى واصبر مدة واطرقه ثلاث طرقات متتابعات وراء بعضها فانك تسمع قائلا يقول من يطرق باب الكنوز وهو لم يعرف ان يحمل الرموز فقل أنا جودر الصياد بن عمر فيفتح لك الباب ويخرج لك شخص بيده سيف ويقول لك ان كنت ذلك الرجل فمد عنقك حتى ارمي رأسك فمد له عنقك ولا تخف فانه متى رفع يده بالسيف وضربك وقع بين يديك وبعد مدة تراه شخصا من غير روح وأنت لا تتألم بالضربة ولا يجرى عليك شيء وأما اذا خالفته فانه يقتلك ثم انك اذا أبطلت رصده بالامتثال فادخل حتى تري بابا آخر فاطرقه يخرج لك فارس راكب على فرس وعلى كتفه رمح فيقول أي شيء أوصلك الى هذا المكان الذي لا يدخله أحد من الانس ولا من الجن ويهز عليك الرمح فافتح له صدرك فيضربك ويقع في الحال فتراه جسما من غير روح وان خالفت قتلك ثم ادخل الباب الثالث يخرج لك آدمي وفي يده قوس ونشاب ويرميك بالقوس فافتح له صدرك ليضربك ويقع قدامك جسما من غير روح وان خالفت قتلك ثم ادخل الباب الرابع وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح

(وفي ليلة ٦١١) قالت بلغني أيها الملك السعيد أن المغربي قال لجودر فادخل الباب الرابع واطرقه يفتح لك ويخرج لك سبع عظيم الخلقة ويهجم عليك ويفتح فمه يريك أنه يقصد أكلك فلا تخف ولا تهرب منه فاذا وصل اليك فاعطه يدك فمتى عض يدك فانه يقع في الحال ولا يصيبك شيء ثم ادخل الباب الخامس يخرج لك عبد اسود ويقول لك من أنت فقل له أنا جودر فيقول لك ان كنت ذلك الرجل فافتح الباب السادس فتقدم إلى الباب وقل له ياعيسى قل لموسى يفتح الباب فيفتح الباب فادخل تجد ثعبانين أحدهما على الشمال والآخر على اليمين كل واحد منهما يفتح فاه ويهجمان عليك في الحال فمد اليهما يديك فيعض كل واحد منهما في يد وان خالفت قتلاك ثم ادخل الى الباب السابع واطرقه تخرج لك أمك وتقول لك مرحبا يا ابني قدم حتى أسلم عليك فقل لها خليك بعيدة عني واخلعي ثيابك فتقول يا ابني أنا أمك ولي عليك حق الرضاعة والتربية كيف تعريني فقل لها ان لم تخلعي ثيابك قتلتك وانظر جهة يمينك تجد سيفا معلقا في الحائط فخذه واسحبه عليها وقل لها اخلعي فتصير تخادعك وتتواضع اليك فلا تشفق عليها فكلما تخلع لك شيئا قل لها اخلعي الباقي ولم تزل تهددها بالقتل حتى تخلع لك جميع ما عليها وتسقط وحينئذ قد حللت الرموز وأبطلت الارصاد وقد أمنت على نفسك فادخل تجد الذهب كما ناداخل الكنز فلا تعتن بشيء منه وانما ترى مقصورة في صدر الكنز وعليها ستارة فاكشف الستارة فانك ترى الكهين الشمردل راقدا على سرير من الذهب وعلى رأسه شيء مدور يلمع مثل القمر فهو دائرة

كان صاحبي الأسمر يصيح بي حاثاً: اقتلها ولا تخف، إنَّها تكذّب عليك، اغرس السكينة في صدرها، وكنت أنا أتقدم نحوها بارتباك واضح لمن يراني.

أصبحت المسافة التي تفصلني عن أمي، أو شقيقتي، لا أدري أيّهما هي التي تقف أمامي، قصيرة جداً، عندها رفعت أنا السكينة للأعلى فوق رأسي وهويت بها إلى صدرها، بالضبط على مكان القلب منه. كان ألماً متكتماً، كان غامضاً وغير قابل للتحمّل، لهذا لم تقل شيئاً، ولم تصرخ، أو تدافع عن نفسها، بل كانت فَرِحَة، مسرورة بقتلها وغرز السكينة في قلبها.

فزعت من فراشي مرعوباً والعرق يتفصّد في كل مكان من جسدي حتى ابتلّت ملابسي الداخلية من شبقي، والخارجية من العرق الذي نزّ كثيراً.

اختلط عليّ ما يراه النائم من أحلام، والكثير من همسات المشاعر التي تضغط عليّ في بعض الأحيان فتشوش تفكيري.

فركت عينيّ عدة مرات، فتحتهما جيداً فتسلل الضوء إليهما من ستارة النافذة لصباح جديد مشرق، انعكست أشعته النافذة على تكور جسمها الممتد على الفراش. كانت شقيقتي تنام عارية بالقرب مني، ووجهها وهو في عز النوم باسماً، وصدرها يعلو وينخفض بانتظام رتيب، ولم أجد أيّ أثر لدماء في صدرها، فيما صديقي الأسمر الذي لم أعرفه لم يكن موجوداً في الغرفة.

أفقت على وضعي هذا، أنا وشقيقتي في سرير واحد، عاريان من كل شيء. كانت في نومها كالراقصة، جميلة وشيّقة، عندها وددت لو أستطيع أن أتنفس هواء منعشاً، وبارداً.

وهكذا انقلب الصياد إلى فريسة، ووقعت في الفخ، وها هي ذا تنام بالقرب مني عارية لا يسترها شيء، وكأن جسمها يدعوني إليه.

بعد دقائق، حيث تركني ذلك الذهول، وغادرتني تلك البلاهة، عاد لي تفكيري، قلت مع نفسي: العقل عقلك، هو ملكك، يجب أن تفكر فيه أنت ولا تدع الآخرين يفكرون عنك.

هذا الذي حكته جدّتي هو ما كان مكتوباً في السجل الكبير بخط جدّي، "أنعم"، والذي قرأه والدانا أمامنا.

وتغوّش كل شيء أمام عيوننا أنا وأخي"رياض"، غاب كل شيء، ثقلت جفوننا، فراحت تنغلق بسهولة.

انطفأ كل حسّ بالسمع عندنا نحن أحفادها الصبيان "رياض" و"دنيا" حيث تصفنا بالحلوين، وتوقف الزمن. رحنا في غفوة وسبات، تكلّلنا الأحلام الوردية الجميلة، والأمن والسلام.

***

الفصل الثامن

-١-

(إن توقظ الطبيعة خير لك مما تمنحه هذه الطبيعة من أشياء وألوان ومناظر. الطبيعة عذراء لم يمسسها أحد، وطبيعتنا هي هكذا).

هذا ما قاله "أنعم"، وقد دونه في السجل الكبير، السجل الذي توقّف إنتاجه وبيعه منذ سنوات طويلة. سجلٌ أكسبه القِدم إصفرار صفحاته المئة، فبات وكأنَّه صنع من قبل آلاف السنين:

(أول ما وعيت على الحياة ومجريات أمورها وجدتها كثيفة مثل زلال البيض، فهي مليئة بالدهشة، والألغاز، وسوء الطالع الذي يعيشه الكثير من الناس، ومن ضمنه أنا "أنعم".

ومن سوء طالعي أن أبقى وحدي معزولاً عن الآخرين، فنظرت بعمق إلى نفسي من الداخل، وجدتها مصدومة، مخيفة.

وعندما تكون وحدك معزولاً مع الورقة والقلم، يكون أمامك متسعاً من الوقت لتكتب أيّ شيء، أيّ شيء يخطر على بالك، خاصة إذا كانت المخيّلة نشيطة تدعمها ذاكرة ثرية بالذكريات، وخاصة اليوميات.).

في يوم ما قيّدَ هذا الجدّ، "أنعم"، يومياته في ذاكرته الورقية، السجل الكبير، الذاكرة التي لا تُمحى عبر الزمان والمكان، وأودعه هذا الكيس المصنوع من الخيش برفقة هذه الكتب المختارة بعناية، وخبّأه خلف أحد جدران الدّار الكبيرة، وبنى عليه حائطاً ثانياً. وعندما هَدّ "الشفل" ذلك الحائط من البيت، سقط الكيس على الأرض دون أن يحدث صوتاً أو جلبة، لكنَّه أحدث ما هو أكثر من ذلك، وهو البحث والتقصي وسهر الليالي مع محتوياته، والشخص الذي خبّأه.

السجل هذا الذي وجدناه في كيس الخيش مع بقية الكتب، والقرص اللدائني، هو دفتر كبير ممزق من بعض جوانبه، ومنزوع الغلاف. وقد كتب على الصفحة الأولى منه هذه العبارة: (الحب هالحرْفين مشْ أكثر).

لا أعرف ما هي، ومن قالها؟ ربما هي لجدّي، إلّا إنَّ كلمة (هالحرْفين) تنبئ أنَّها ليست لجدّي، إن كانت بلهجته العراقية أو كانت بلغته العربية الفصحى، قال والدنا: ربما قول لشاعر غير عراقي، أو أغنية غير عراقية.

رحنا نبحث عن هذه العبارة في الحاسوب فوجدناها، أنا وأخي أبو حديبة. من كلمات أغنية لمطربٍ كان قبل أكثر من مئة عام قد شاعت أغانيه، وهو لبناني الأصل.

كانت هناك صفحة جريدة موضوعة بين أوراق السجل فيها خبرٌ يذكر أنَّ الحاكم العسكري الأمريكي، الذي عينته الدولة الغازية، قد نصّب مجلساً للحكم في العراق من خمسة وعشرين شخصاً، من أغلبية شيعية، وقد وضع خطاً بقلم حبر الجاف الأحمر تحت الخبر.

كتب هذا الجدّ في أوّل صفحة من السجل وهو يرتجف من الخوف من الناس والآخرين، كتب بقلم جاف أحمر:

(إن توقظ الطبيعة خير لك مما تمنحه هذه الطبيعة من أشياء وألوان ومناظر، الطبيعة عذراء لم يمسسها أحد، وطبيعتنا هي هكذا، كما نحن، فكان لنا أن نوقظها فجر هذا اليوم، بعد ليلة قضيناها في بيت المزرعة متعانقين، ونحن ننام سوياً في فراش واحد، يلفنا لحاف قطني واحد، فيما رائحة أجسادنا هي كذلك واحدة تنبعث داخل اللحاف، والباب مقفل من الداخل.

وكما أن الساعات تقوم بتجميع الزمن الميّت في لوالبها الداخلية، وتقوم بإظهاره للعيان بواسطة عقاربها الفسفورية الرفيعة، كان والدي ووالدتي يعودون في وقت محدد، كانت فيه

العقارب تشير إلى زمن متكرر في كل يوم ولا يتغير بعد قضائهم ليلة كاملة في دور ليست دورهم، وفي فراشين مختلفين.

كان والدي، وبعد أن رجعنا من لندن، يبات خارج البيت. لا نعرف أيّن، كما كان يفعل في كل مرة نزور فيها المزرعة، ولا يعود إلى البيت إلّا في وقت ظهر اليوم الثاني، حيث يستحم ويأكل ثم ينام القيلولة، ولا يهمّه أيّ صوت يأتي من الخارج، أو الداخل، حيث يتعالى صراخ الفلاحين دائماً.

وأمي تذهب لتبات، كذلك، في بيت أحد الأقارب المزارعين الميسورين في القرية، أبو سعيد الروحان، ولا تعود إلّا في الساعة العاشرة صباح اليوم الثاني، فتدخل الحمام وتأخذ "دوشاً"[1] ساخناً ثم تنام ولا تنهض من نومها إلّا في ساعة متأخرة من عصر ذاك يوم.

مرة رجعت إلى البيت وجسمها كله مبقّع ببقع حمراء جراء لسعات الزنابير، لم نسألها أيّن كانت، لأنّنا نعرف المكان الذي فيه كورة الزنابير الخالية من العسل، وهو خلوة شبه مظلمة في بيت أبو سعيد الروحان.

كانت قبل أن يذهبا إلى لندن و"أنعام" في حضنها، تحب زوجها، وهو يحبها، وعندما عادا من لندن بعد سنوات طويلة كانت هي قد هجرت فراشها الزوجي، وهو قد هجره، فراحت تبات في القرية مع الروحان، وقد فعل هو مثل هذا. كانا زوجان متعادلين في المبيت خارج البيت.

كان أبي يحب أمي ومشيتها الغزلانية. وركاها ككفل غزالة تتهاوى به في مشيتها. كان ينظر إليها دائماً عندما تقوم من مجلسها، أو عندما تسير، أو تجلس. وكان يمدح هذا الذي يراه أمامه، أما الآن فكنا نحن الذين حافظنا على علاقتهم الزوجية.

---

١ - دوش: (لفظة إنجليزية) الدوش هو رشاش الماء في الحمام.

ونحن في القرية، كما في المدينة، نعيش بأمان وسلام، والطبيعة تسير بمجراها المعهود دون أن يكون لنا تأثير في تغييرها وإنما نحن الذين تغيرنا. أبي يبيت في بيت ثانٍ، وأمي تبيت في بيت آخر، أما نحن، أنا وأنعام نبيت متلاسقين، فم في فم، وصدر على صدر، ومناطق حساسة على مناطق حساسة. كنّا عاريين من كل ما يسترنا).

***

-٢-

في يوم آخر، ووقت آخر، وفي ورقة أخرى، وبلغة عربية أثّرت في لفظها اللغة الإنجليزية، كتب هذا الجدّ مغامراته مع شقيقته "أنعام"، وكأنَّه يريد أن يخبرنا، نحن أحفاده، بهذا الحدث، وما وقع لهما، إذ بدأت الحوادث تشع في ذهنه، كفيلم سينمائي:

(وقعت أحداث ما كتبته هذا اليوم، كان الفصل ربيعاً، ومزارع الحنطة صفراء تنتظر الحصاد، وكان والدنا والفلاحون ينتظرونه. الوقت ظهراً، ونحن في المزرعة.

كان توقّفي عن تقبيلها، أقصد "أنعام"، وتوقفها هي عن تقبيلي، بسبب ما سمعناه من أصوات الفلاحين الآتية من قريب. افترقنا كما تفترق وحدتي "زقفالة"[١] باب الدار عند الفتح بصرير حاد، سمعناه من ثوبها الذي مدّته نحو أقدامها بعد أن كان ملفوفاً على صدرها فوق نهديها. كان صدرها المرمري واضحاً لي وقد حُطّ نهداها الزامين كنصفي برتقالة ناضجة، على صدرها. فخذاها البضان نابضين بالحياة، فيما أنا سحبت بنطالي إلى الأعلى، وأحكمت إقفاله، بعد أن عدّلت من وضع لباسي الداخلي الذي كان بالقرب من ركبتي. كل هذا حدث ونحن بين سنابل الحنطة الصفراء العالية التي تنتظر مناجل الفلاحين، والسكاكين الكبيرة للحصاد).

انتهت كتابة جدّي، وأكملت الجدّة العمياء ذات البصيرة القوية، والبصر المفقود، عن ظهر قلب ما كان مكتوباً من كلام في السجل، نقلاً عن زوجها الرجل الأعرج المريض والنائم الآن في سريره في الغرفة المجاورة كحاجة زائدة في البيت إلّا إنها حاجة مهمة في بعض الأحيان لِما ينقله عن والده. قالت الجدة بعد أن

١ - زقفالة: مزلاج الباب .

عدلت من جلستها على الفراش، بسملت كثيراً:

(كان الريف، هذا الذي تمشي الدجاجات فيه نيّئة كما يقول ماركيز، أقصد سكانه من البشر والحيوان، ساكناً في هذه اللحظة وفي كل لحظة تمر عليه، والبشر والحيوان يعملون برتابة قاتلة، فيما كانت الشمس تجعل الأشياء من تحتها ذات بريق ولمعان حادّين، والأصوات الآتية من الجهة الشمالية للمكان الذي اتخذناه مكاناً لنا بين سنابل الحنطة الصفراء اليابسة والمهيّئة للحصاد وكأنَّها تقترب منّا، قد علت، رفعت رأسي قليلاً كي أرى ما يحدث بالقرب منا، سحبتني إليها، وسمعتها تقول بصوت يشبه الهمس:

- لا علينا حبيبي، اتركهم وشأنهم، اتركهم كي لا يهتدوا لمكاننا فننفضح.

إلّا إنّي لم أتركهم لوحدهم، رفعت رأسي مرة ثانية لأنظر إلى ما يجري من حولي، وأعرف مصدر الأصوات العالية، إنَّها أصوات غير مفهومة، وهي تطارد ثوراً أسود هائجًا، راح يركض بسرعة جنونية، و"الزبّاد"[1] يسيل من فمه كما يسيل الماء من أنبوب مفتوح.

كان مجيئنا إلى هذه المنطقة من الأرض المزروعة بحبوب الحنطة، التي أثقلت سنابلها، فأحنتها، لسبب هو أن سنابلها الصفر عالية عن سطح الأرض رغم انحنائها بعض الشيء، وليس فيها ذباب يطن، ولا نحل، أو زنابير تأز، وأنَّها تخفي داخلها كل شيء. هكذا فكرنا أنا وشقيقتي، حبيبتي، واخترناها، عندما انتقلنا من بيتنا في المدينة إلى القرية، حيث الأرض المزروعة بالحنطة ونحن في شهر نيسان قبل الحصاد بأيّام، جئنا بسيارة أبي الفارهة ذات الدفع الرباعي بلونها الأسود اللامع.

١ - الزبّاد: سائل حليبي كثيف يخرج من فم الحيوان لتعبه، أو لمرضه.

كانت أمي وهي ترضع أخي الصغير الذي لا يشبهنا نحن أخوته، ولا يشبه والدي ولا أمي، وإنما يشبه قريبنا الروحان، والذي مات وهو صغير، تنظر بين الفينة والأخرى إلى خارج نافذة السيارة وهي تراقب معالم الطريق، وقد كان وجهها لا يعكس أيّ شعور أو إحساس بشيء البتة. كان جامداً، والحقول الصفر تمر من جانب السيارة بسرعة عالية.

بعد أن غادرت السيارة ساحات المدينة العامة التي تشكو الإهمال، وشوارعها المملوءة بالحفر و"الطسات"[1]، وأكوام من "الزبالة"[2]، والقاذورات، ومخلفات البيوت، والكثير من الكلاب السائبة، والحيونات التي يتركها أصحابها لترعى على ما تتركه البيوت من بعض الطعام إن وجد، والناس الذي يمشون حفاة بلا شيء يحميهم من الأرض وما فيها، فيما مصانع الأحذية التركية، والإيرانية، والصينية تملأ أسواقنا بمنتجاتها، سألت نفسي: بماذا تفكر هي الآن بعد أن استنشقت هواء القرية الذي لم يعد نقياً كالسابق، وبعد أن فتحت نافذة السيارة قليلاً؟ أتفكر به، أم بأبي، أو بهذا الطفل الذي هو ثمرة ليالي مبيتها خارج البيت؟

كانت شقيقتي، حبيبتي، "أنعام"، قد مال رأسها على كتفي وهي تنام بوجه نضر، وطفولي باسم، وقد نزعت "ربطة"[3] الرأس الحليبية اللون، تفوح منها رائحة القداح الإنجليزي - الفرنسي، وكانت رقّتها الشفافة قد نُسجت من خيوط الحرير، ارتعدتُ بقشعريرة، وعروقي أخذت بالتوتّر، وأنا أتأمل جسدها اللدن، فيما كفها راح ينام في كفي، وقد اشتبكت أصابعه مع

١ - المطبات في الشارع.

٢ - الزبالة: فضلات البيت.

٣ - وشاح تشده المرأة على شعر رأسها.

أصابع كفي، حتى شعرت أنَّ أصابع كفي قد رُضّت من فرط تشبث أصابعها بأصابعي.

كانت الحرارة تشع من جسدها اللدن، وأطرافها، فأصيب بحمى من النشوة واللذة، يتصاعد جنوني الشهواني فأرغب بامتلاكها، دون أن يرانا أحد، حيث كان أبي مشغولاً بالنظر إلى الخارج من خلف زجاج السيارة، أو إلى أمامها، وأمي التي تحررت من عباءتها السوداء التي ارتدتها بعد أن جاءت من أربيل، ومن غطاء الرأس، ما دامت تجلس في السيارة، وفي طرق القرية، وهي ترضع أخي الصغير الذي مات مبكراً، ومشغولة بالكتابة في موبايلها، ولا أعرف لمن، والنظر إلى الخارج بين الفينة والأخرى. لم يعنيني ذلك، فقد انشغلت بتقبيل شقيقتي من شفتيها. كان رضابهما حلواً، كان عسلاً، وشاركتني هي القبلة مغمّضة العينين، وكان وجهها مشرقاً وزاهراً، والنوم ما زال يجثم على عينيها بأهداب رموشهما الطويلة السوداء الكحيلة.

كسر صمت الأصوات الأزلية في الحقول وتحت الشمس، أصوات الفلاحين العالية وهي تركض وراء ثور أسود هائج، وقد فرّ من بين أيّديهم.

كان الثور يركض بخط متعرج على الشارع الترابي وقد تجاوز نخلة "المخبول"[1] المتيبسة، وكأن مجموعة من القصابين وهم شاهرين سكاكينهم يريدون ذبحه، وهو يثير الأرض من تحت أظلافه القوية، حتى ترى أن مكان وقعها على الأرض قد دُكّ دكاً، فتشعر باهتزاز الأرض وأنت تبعد عنه كثيراً.

تصاعد الغبار من خلفه وكأن زوبعة ترابية قد حلت في المكان الذي كان طريقاً لركضه المجنون وهو يلهث ويخرج من منخريه ثاني أوكسيد الكربون بكثرة وبقوة لا يحسد عليها، وقد أجهد قلبه وساقيه.

١ - المخبول: المجنون.

يحاول الفلاحون جاهدين، وقد تصببت وجوههم وكل مسامات أجسامهم عرقاً، حتى باتت رائحتها اللزجة نفاذة لا تطاق، إن يمسكوا بحبل قصير يتطاير من خلفه، وقد رُبط عند رقبته. وقد أمسكوا بعصي، وهراوات، وأغصان أشجار يابسة، وهي تلوح بين أيّديهم المشرعة إلى الأعلى وهم يركضون خلفه وكأنّ الأرض تهرب من تحت أقدامهم الحافية.

عرف "أنعم" أحد المزارعين الذين يركضون وراء الثور الهائج، إنه أبو سعيد الروحان، بجسمه الضخم، ووجهه المدور الذي يشبه رغيف خبز، هذا الذي تبات عنده أمي عندما نأتي إلى المزرعة، ويشبهه أخي الرضيع، وكان قريباً لأبي من جهة أمه، ولديه "مشتملاً"[1]، يقع بعيداً عن داره التي تضم كل نسائه وبناته غير المتزوجات.

لم يكن أبو سعيد الروحان يعرف أنَّه سيكون في يوم ما مشهوراً في القرية من خلال زيجاته، إذ تزوج من أربع نساء، وخلّف أكثر من عشرين فتاة فقط، ولا ذكرٌ بينهن، وكان مؤمناً بأنّ المرأة التي سيتزوجها ستلد صبياً، وهكذا في المرة الثانية والثالثة والرابعة، وما منعه من الزواج سوى تعليمات الدين، وتزوج بعدها زواج (متعة) فولدت التي تمتع بها أنثى كذلك، فسرحها هي وابنتها الرضيعة، ووصل به الحال أخيراً إلى أن يزوّج بناته الواحدة بعد الأخرى عندما تصل إلى سن التاسعة من عمرها لأنه كان شغوفاً بسيرة النبي.

تركت أبا سعيد وصحبه المزارعين والثور الهائج وعدت إلى شقيقتي، حبيبتي، الذي تكور جسمها بين سنابل الحقل، إذ لم نبدأ بشيء سوى التقبيل، وكانت سنابل الحنطة تحيط بنا وتغطينا، وظلالها يضمّنا، كما تضمّنا ليالي الشتاء الدافئة ونحن تحت

١ - مشتمل: بناء سكني صغير تابع للدار.

اللحاف المحشو بالقطن الأبيض، نتبادل القبلات بلا ملابس داخلية.

كانت الرائحة هي التي ظلت لا تبارحني منذ ذلك الحين، رائحة السنابل النابضة بالحياة التي لم تغادر سيقانها النحيلة، هكذا كلما أرى "أنعام" وهي تغمز لي بعينها، أشم تلك الرائحة التي تملأ المكان الذي أنا فيه.

كان صوت وقع أظلاف الحيوان الراكض، وأقدام الفلاحين الذين يطاردونه بكل قوتهم، هو الذي رفعنا من الهوة السحيقة التي كدنا أن نقع فيها والتي كانت تدعونا إليها ونحن نقترب منها، وما زلنا نحن تحت رحمة تلك السنابل التي ستقطّعها سكاكين الحاصدة الآلية التي اشتراها أبي قبل أيّام، ومناجل الفلاحين المسنونة جيداً.

كنت أنا وشقيقتي، توأمي، حبيبتي، سعيدين، نكاد أن ندخل لأول مرة من باب الغواية الذي فتح أمامنا على مصراعيه إلى عالم ليس عالمنا، وإلى فضاء ليس فضاء أخوتنا، لولا صوت تلك الأظلاف والأقدام.

رفعت رأسي مرة ثانية فوق السنابل، كان الفلاحون والثور يبتعدون عن مكاننا أكثر من خمسين متراً، تحت ظلال الغيوم البيضاء التي لا تمطر، ونور الشمس الساطع والمنعكس عليهم وهم يركضون، فيما يتصاعد الغبارمن خلفهم كسحابة كثيفة، عندها ارتحت كثيراً لابتعادهم:

- إنَّهم يبتعدون عنا كثيراً.

قلت "لأنعام" ذلك، وغطسنا في تلك الهوة السحيقة ببراءتنا البيضاء بعد أن مددت يدي إلى ثوبها الأخضر الحريري، وسحبته إلى فوق نهديها النابضين بالحياة، والزامين بالشبق المحموم.

ارتفعت حرارة جسدينا عالياً، كنا كمن يجلس في قدر يغلي فيه بخارٌ، بنطلون الجنس قد تكوّر عند ساقيّ المشعرتين. خرج من فمنا ثاني أوكسيد الكربون أكثر من اللازم يكفي لمزروعات

القرية أن تصنع غذاءها منه. زفرنا أنفاساً مثقلة بالشهوة، واللذة، والشبق. راحت أظافر أصابعها تخدش جلد ظهري بقوة دامية، وحتماً تركت أثراً لا يمحى، لم أتألم، لم أتأوه، لم أصرخ، كل هذا الشعور والإحساس قد فقدته تلك اللحظة ونحن ننزل بسرعة في تلك الهوة السحيقة، إنَّها تسحبنا إليها بقوة، فيما أنا قد عضضت حنكها المرصوع من المنتصف، بقوة كما تعض الكلبة صغارها لتنقلهم من مكان إلى آخر. عندها أحسست إنَّنا وصلنا إلى مطلع الشمس البهية، فسمعت صرخة قد دوت في حقل السنابل الواسع: آخخخ، ودخل كل شيء في صمت مطبق، صمت كصمت القبور في ظهيرة صيف حار.

لم تخف وجهها المبلل بعرقها المتفصد عليه، أمامي، كأن تجعل من يديها مانعاً كي لا أرى وجهها مثلاً، بل أصرّت على أن تنظر في وجهي المأخوذ بتلابيب الشهوة والنشوة وهي تبتسم لي بغنج، تنظر إلى وجهي بعينين زرقاوين مشرقتين فرحاً، وكأنها تقول شكراً.

كنت أرتعش، كانت عينايّ قد أغمضتهما من شدة اللذة التي امتلأ بها جسدي، والعرق الناز من جسدينا الساخنين قد بللنا سوياً، وما زلت أشم رائحة شواء جلد حي، عندها سمعت صوتي يأتي من بعيد صارخاً: آه.

لا أعلم إن كنت في حلم أو في علم بما أنا فيه، إلّا أن هزة عنيفة من يد شقيقتي"أنعام" أخرجتني مما كنت فيه.

فتحت عينيّ، كانت الشمس تسطع فيهما، فغشت من قوة تألقها الساطع والباهر.

انتبهنا إلى وضعنا، كان سيئاً للغاية، ورائحة اللقاء في المكان نتنة، إنها مقرفة ومقززة، شهقنا سوياً، لقد أكلنا التفاحة سوية، وابتسمنا معا.

كانت ورقة الكلينكس ما زالت بيدها وهي ملطخة بلون أحمر، وعندما أشرت لها عن تلك الورقة، دستها في جيب ثوبها وهي تبتسم. قالت بصوت خفيض:

- أنا لا يهمني هدف البالغين من الجنس. أنا مراهقة أبغي غير ما كانوا يبغون منه.

هل كانت تبغي اللذة من وراء ذلك؟ لم أسألها وقتها، تركت أمر ما كانت تؤمن به لنفسها فقط، أما ما كنت أؤمن به أنا فهو لنفسي أيضاً لا أحب أن يشاركني فيه أحد. وعلى الرغم من أنَّها كانت تعيش في لندن، المدينة الضبابية الباردة، إلّا إنَّها في الأصل من مدينة حارة تصل الفتاة إلى حالة النضج مبكراً.

كانت لا تزال تملك قدراً من السحر، وقدراً من الجاذبية الجنسية. إنَّها فتاة كوردة الجوري في أرضها، بكر، وقد أصبحت جورية مقطوفة، ثيب، ذهبت منها البراءة، كما ذهبت مني أنا قبل لحظات.

في هذا الوقت شعرت بالخلاص، تحررت من كل شيء. فلاحت لي الحرية من بين ضرورات الحياة، وهي الضرورة الوحيدة التي اكتشفتها الآن.

ظلّت ذكرى تلك الصيحة تعيش معي، تأكل، وتشرب، وتنام، وأنا فَرِح بها، وفي قلبي شعور ينضح باللذة ممزوجة بالانهزام والنفور.

وظلّت ذكراها طرية ولذيذة طيلة سنوات طويلة، أبات عليها، وأصحو عليها.

هذا ما حدث وما دونته أنا "أنعم" في السجل، وكان ما حدث لنا هو أمتع لحظات حياتنا، وكانت هي امرأتي الخاصة والوحيدة، وكان فيها الأمل.

إنَّني أفهم "الكيفية" التي كنا فيها، ولكنَّني لا أفهم، أو أنا لا أريد أن أفهم، لماذا أصبحنا هكذا.).

وتغوّش كل شيء أمام عيوننا أنا وأخي"رياض"، غاب كل شيء، ثقلت جفوننا، فراحت تنغلق بسهولة.

انطفأ كل حس بالسمع عندنا نحن أحفادها الصبيان "رياض" و"دنيا" حيث تصفنا بالحلوين، وتوقف الزمن، رحنا في غفوة وسبات، تكلّلنا الأحلام الوردية الجميلة، والأمن والسلام.

***

الفصل التاسع

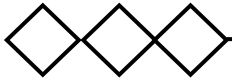

(قلت مع نفسي: العقل عقلك، فلا تدع الآخر يفكر عنك) .

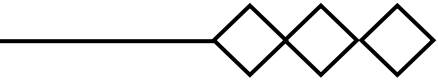

هذا ما كان مكتوباً في السجل بقلم جاف أحمر، ربما هو خط أحد أجدادي السابقين. بالتأكيد إنَّه جدّي "أنعم". إلّا أن جدّتي حكت لنا، وهي تنقل عن زوجها الأعرج المريض، نقلاً عن أبيه، الحكاية التالية، فيما كانت قد أنهت صلاتها لفرض العشاء:

(فيما كان الشاي يغلي في الإبريق "الصيني"[1]، والبخار يتصاعد منه مكوناً سحباً من البخار الأبيض والذي يترك خلفه على الأشياء الباردة قطرات صغيرة من الماء الصافي، وقد امتلأ استكان الشاي منه، ودون سابق معرفة بالرجل الجالس على تخت المقهى الذي أجلس عليه، بلحيته البيضاء القصيرة، ومسبحته السوداء الطويلة، حيث كان يزعم أنَّه معلم مدرسة ابتدائية. فاجأني بسؤاله بنفس الصوت الملآن ثقة وإخلاص لِما كان يعتقد به قائلاً:

- هل تؤمن باليوم الآخر؟

صعد الأدرينالين في دمي، تسارعت ضربات قلبي، أخذ يحدثني عن أهوال النار، ومسرات الجنة كأنَّه رآها رأيّ العين.

قطّبت بين حاجبيّ لمفاجأتي وشدة اندهاشي. كنت أجلس في المقهى لأشرب استكاناً من الشاي، فجاء السؤال مفاجأة لي، أربك حساباتي، أخرجني من دوامة تفكري الذي كان منصباً على

١ - صيني: أواني للطبخ مصنوعة في الصين، وهو السيراميك.

شقيقتي، وعشيقتي، "أنعام"، ووضعني في حاضر هذا اليوم الذي أعيشه وأنا في المقهى لأشرب الشاي.

تفحصته جيداً من شعر رأسه حتى أخمص قدميه هذا الذي يسألني مثل هذا السؤال، وكان المقهى خالياً من الرواد سوى شخص واحد يستخدم هاتفه الجوال في مكالمته مع شخص آخر بعيد عنه، عندها سألته متهكماً، بعد أن وضعت مثل هذا التساؤل في صندوق، وأقفلته، وخبأته في مكان بعيد:

- من أين عرفت ذلك؟

فغر فاهه متعجباً، ثم قال:

- من السلف الصالح.

سألته:

- وهل الأموات هم الذين يديرون لك الحياة؟ كيف تقبل ذلك؟

- إنَّهم سلف صالح.

صحت على "الچايچي"[1] وطلبت منه ملعقة سُكّر لأن مرارة فمي زادها هذا المعلم بسؤاله.

أردت أن أسأله كيف عرف بصلاح هذا السلف، إلّا إنّي أحجمت عن ذلك، سألته:

- وهل هناك يوماً آخر غير هذا اليوم الذي نعيش جحيمه، وثقله الكبير علينا؟

وتبسمت في وجهه الذي لا حياة فيه.

قال محدثي الذي لم أكن أعرفه، ولا التقينا سابقاً:

- أقصد جنة ونار؟

قلت له، وأنا أشرب من استكان الشاي الموضوع أمامي على الطاولة الخشبية وقد افترت سخونته فبات بارداً:

- أنتم مثل الذي يركض في ساحة دائرية لا يصل إلى هدف معين.

---

١ - الچايچي: الذي يقدم الشاي في المقهى للزبون.

رأيت علامات الدهشة على محيا الرجل المعلم، ضحكت وتابعت كلامي بمرارة:

- زمن كَثُرَ فيه طرح الأسئلة دون إجابات، أو أفعال واقعية.

سألني والدهشة ما زالت مرتسمة على محياه:

- هل جننت؟ كيف تقول هذا؟

حاولت أن أقوم وأصفعه على وجهه، إلّا أنّي تماسكت جيداً بعد أن نعتني بالجنون. قلت له دون أن أجيب عن سؤاله:

- أنا الآن أفكر بالحاضر، وكيف أتخلص أنا وحبيبتي – ولم أذكر أنَّها شقيقتي – من الآخرين. ربما أفكر بجدية بذلك بعد أن أتخلّص من هؤلاء الناس الذين لم يفهموا حبنا، أنا ابن الحاضر الملتبس.

ثم أكدت له، بعد أن أخذت رشفة من الشاي البارد:

- الآخرون هم الجحيم، كما يقول عمنا سارتر.

سألني وهو يبتسم:

- ومن هو عمك هذا؟

أجبته وأنا ارتشف الشاي:

- إنَّه رجل من أولئك الرجال.

صمتَ ولم ينبس ببنت شفة. أخذ يقلّب سبحته ذات المئة خرزة وخرزة، بعدها سألني قائلاً:

- وكيف تتخلص من الآخرين الذين هم الجحيم كما يقول عمك هذا؟

سألته مناكفاً:

- ألم تعرف سارتر؟

أخرج منديلاً كبيراً من جيب بنطاله ومسح أنفه، وسعل فيه، ثم هزَّ رأسه علامة النفي:

- لا.

في غيظ، وحنق، أجبته دون أن أرفع عينيّ من وجهه الذي علت تجاعيده علامات الدهشة والانبهار:

ـ سأقول لك، ربما بالموت. مثلاً.

تبسمت في وجهه علامة على التهكم منه.

تنفست بعمق ساحباً الهواء إلى داخل منخريّ حيث احمرّ، كنت بحاجة إلى من يشاركني الحديث في هذه اللحظة عن شيء غير ما طرحه هذا المعلم.

كانت السماء شبه سوداء، مكفهرة، وهي تمطر برداً، وأنا أحترق حباً، وليست فيّ رغبة لأجادله في الإيمان بالجنة والنار واليوم الآخر، لأن ما أنا فيه لا يسمح لي أن أخبره بما أؤمن به، أو الذي لا أؤمن به، حيث فقدت الهدوء الداخلي منذ أيام، فلم أكترث لما يكلمني الناس فيه بعد أن قذفت بي "أنعام" إلى الهوة العميقة والمظلمة ككحل عينيها الكبيرتين كعيني بقرات مزارعنا الكثيرة. قال دون أن يرفّ له جفن من الخوف ليظهر لي عدم خشيته من الموت، وكرد لحفظ ماء وجهه:

ـ أنا لا أخاف الموت، أرى أن الموت هو الذي يخاف مني.

وضحك بصوت عالٍ حسبته أنَّه رجل مخبول، ثم رمى بجملته وكأنه يريد أن يتخلص منها:

ـ أنا أخشى الحياة التي تكون بلا حياة نعيشها بحب وأمل في الأفق الذي ننتظره.

كان متناقضاً في قوله، فتظاهرت أمامه بأنّني أشرب من استكان برد فيه السائل الأسود الحلو، ولما كان محدثي ممن يصرون على الحديث، أعاد كلامه لي مرة ثانية وأنا أتظاهر بشرب الشاي، وعندما وجدتُ أن لا مناص من الإجابة قلت له:

ـ قرأت مرة أن أحد الفلاسفة قال: أنا لا أخاف الموت، فعندما يحضر الموت أكون أنا غير موجود، وعندما يكون الموت غير موجود فأنا موجود، حي أرزق.

قال المعلم، بعد أن هزَّ كتفيه، ومطّ شفته السُّفلى علامة الموافقة المشكوك فيها:

- هذا صحيح، وهذا ما كنت أقصده، وكأن هذا الرجل يقرأ أفكاري.

بدا لي أن الرجل كمن يريد أن يبيّن لي أنه خبير في الحياة والموت. كان معلماً للأطفال، من هؤلاء المعلمين الذين يعلمون الأطفال في الصف بكل هدوء وثقة، كيفية تغسيل الموتى، وكيفية الصلاة عليهم في درس الدين وهي لم تكن من المقررات.

ضحكت في سري من هذا السؤال السخيف، وكأن قضية الجنة والنار، واليوم الآخر، هي قضيتي المركزية التي أعيش من أجل الإمساك بها.

كل المعلمين الذي يعلمون التلاميذ في الصفوف الستة الابتدائية العلوم الدينية، والتربية الإسلامية، مكفهري الوجه، لئيمين، حاسدين، وغيرها من الصفات المذمومة التي يتمتع بها الكثيرون الذين يشبهون هذا المعلم.

مرة ثانية باغتني بسؤاله:

- هل ذهبت إلى "منصور أبو الحسن"؟[1]

انتفضت على التخت الذي أجلس عليه، وتجهم وجهي إلّا إنّي تداركت الموقف وعاد وجهي إلى حالته الأولى، حالة الدهشة والانبهار، إذ أدهشني السؤال، كيف يسأل هذا المعلم مثل هذه الأسئلة التي ستكون كالسرطان الذي يسري في كيانه، ومن أين يأتي بها. ضحكت بسري. لم أقل له لا أعرف ذلك، لأنه من الغباء أن تقول ذلك أمام رجل يسأل أسئلة غير مبررة، وغير مفهومة.

سألني مرة أخرى:

- هل أنت عاشق؟

١ - منصور أبو الحسن: مزار تزوره العامة في مدينة الناصرية يقال أن الإمام علي بن أبي طالب قد مرّ بفرسه و عثر بالأرض فقال: منصور يا ابا الحسن.

لم أكترث كثيراً لسؤاله، لم تكن لي رغبة بالاستمرار في الحديث معه، لهذا ابتسمت عن أسنان بيضاء لم يمر عليها دخان أيّة سيجارة. أجبت:

- يمكن أن تقول ذلك.

وراح يتحدث وحده عن الأخلاق الحميدة للبنت والرجل، فيما أنا أعيش في زرقة العينين اللتين أبحرت فيهما أكثر من مرة.

ركبت أنا "دالغة"[1] لا أعرف أين تنتهي بي، وانقطع الحوار فيما بيننا، وصمت المقهى.

كنت أنا وحبيبتي، تقلنا الطائرة المغادرة للعراق إلى جهة لا نعلمها، كانت الطائرة قد تركت أرض المطار وحلقت في السماء ونحن فقط فيها محلقين، فيما استكان الشاي قد فرغ تماماً).

وتغوّش كل شيء أمام عيوننا أنا وأخي"رياض"، غاب كل شيء، ثقلت جفوننا، فراحت تنغلق بسهولة.

انطفأ كل حس بالسمع عندنا نحن أحفادها الصبيان "رياض" و"دنيا" حيث تصفنا بالحلوين، وتوقف الزمن، رحنا في غفوة وسبات، تكلّلنا الأحلام الوردية الجميلة، والأمن والسلام.

***

١ - دالغة: خاطرة في الذهن.

الفصل العاشر

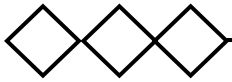

(لم تعد الشمس عذراء كما كانت، ولهذا انتشر الفساد في المدينة).

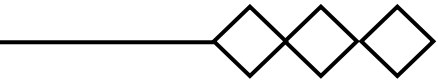

قالت هذا جدّتي العمياء، وهي تروي لنا حكاية جدّي"أنعم" وجدّتي"أنعام"، ثم أردفت قائلة نقلاً عن زوجها، عن أبيه "أنعم":

السماء فوقنا مبقعة بنتف الغيوم البيضاء التي تلتهم شعاع الشمس بين لحظة وأخرى، فينتشر الظل على الحقول الصفراء، والناس، والحيوانات، والأشياء.

هذه السماء التي كأنها قطعة قماش مرقعة في أماكن عديدة بلا ترتيب أو تنظيم، تعلو رؤوسنا التي ذوّبها الحنين لبعضنا البعض، فيما السنابل الصفر تهتز بهدوء تام وهي تنتظر مناجل الفلاحين، وآلات الحصاد بسكاكينها الكبيرة، وكانت الريح بين فينة وأخرى تحنيها فتحدث صوتاً يشعرنا بالسعادة، ونحن، أنا وشقيقتي "أنعام"، نستلقي على الأرض المفروشة بالسنابل الصفر المتكسرة تحتنا، فيما يتناهى إلى سمعنا نباح كلاب فزعة من بعيد فنشعر بالخوف والفزع على ما نحن فيه.

شعرت بدفء جسدها يشع في ثنايا ثيابها الناعمة، عندها أدركت بأنّي أستطيع تقبيل ذلك الجسم الساخن، ولثم فمه دون أيّة خشية من أحد ينظر إلينا في هذه القرية التي هواؤها لم يعد منعشاً كسابق عهده، ولا شمسها ظلت عذراء كما كانت تشرق في القرى الأخرى وهي تبث الدفء والضوء.

كانت شفتانا كحبتي تين ناضج، في تشابك لا انفكاك منه، وكأنهما "زقفالة"مقفلة لباب خشبي قديم، وهما ما انفكّا تمصان الرضاب العسلي منهما في شهوانية لذيذة، في قُبلٍ تتشكّل مختلفة الواحدة عن الأخرى، وقد انقطع عنها الهواء، وساعداي وساعداها يحتضنان أجسادنا الغضة إلى بعضهما البعض، فجأة توقف كل شيء، إنفكّ تشابك الشفاه، لا أعرف أين تعلمت التقبيل، ولم تنفك سواعدنا من الاحتضان.

وتابعت جدّتي العمياء حكايتها عن لسان جدّي، نقلاً عن جدّي الأسبق "أنعم" وهي تروي لنا، أنا وأخي "رياض" أبو حديبة، حكايته مع شقيقته "أنعام". فيما مسبحتها ذات المائة خرزة وخرزة في يدها اليسرى وهي تلاعبها بصمت. ثم أكملت حديثها عن الأشقاء أجدادنا الأوائل:

(قالت حبيبتي "أنعام":

- دقيقة حبيبي.

ثم تركت جسدي، بعد أن تحرر ساعداها من احتضانه من الضغط عليه من الخلف، مدت أحد ساعديها إلى حيث قطعة لباسها الداخلي وخلعته، رمته بعيداً، وفعلت أنا الشيء نفسه، وعرفت أنَّها تحاول أن تقربنا إلى الهاوية السحيقة التي كنا نحوم حولها كفراشات جميلة تحوم حول الضوء والدفء المشعان من شمعة صغيرة، إلّا إنَّها تقع في قبس النار فتحترق، وهذا ما كنت أخاف منه، فجأة سمعنا صياح أحد الفلاحين وهو يصرخ في وجه فلاح آخر، الذي، حتماً، يقف أمامه الآن وهو يصرّخ عليه، جفلت شقيقتي من صياحهما، وبهدوء تام انسحبنا سوية ولم يرنا أحد منهما، فيما بقيت ملابسنا الداخلية بين السنابل الصفر.

كانت هذه المرة الأولى التي نخلع فيها ملابسنا الداخلية في الحقل الأصفر، خلعتها شقيقتي لتكسر حاجز الخوف الذي ينتابني في كل مرة نحاول فيها الاقتراب من حافة الهاوية.

كنت أشبه بطائر علق جناحيه داخل شبكة صياد، أجنحتي هامدة لا تعمل، كل شيء فيّ قد همد. الآن فقط انكسر ذلك الحاجز، وكنا سنستمر في "لعبتنا" القاتلة لولا هؤلاء الهمج الأوباش، أشارت لي ألا أفعل أيّ حركة تفضح المكان الذي نحن فيه.

عدنا إلى المكان الذي كنا فيه بعد دقائق حيث تنتظرنا ملابسنا الداخلية.

سكت صوت الفلاحين عن النباح الذي لم نفقه شيئاً منه.

كان الوقت بعد الغداء بأكثر من ساعة حيث والدينا يأخذان قسطاً من نوم القيلولة، كل في غرفته المخصصة له بعد أن باتا خارج البيت.

كان هذا المكان الذي تعرينا فيه لأول مرة، أقصد أنا وشقيقتي التي خلعت لباسها ولباسي الداخليين، فأصبحنا كجدّنا أدم، وجدّتنا حواء، لا شيء يسترنا، هو مكاننا المعهود، وكان الجو صحواً إلّا من بعض نتف الغيوم البيضاء المتناثرة، هنا وهناك، فوق رؤوسنا في صفحة السماء الزرقاء كحديقة مزروعة بـ "الثيّل" في صيف حار، بقعة خضراء وأخرى صفراء، وأصوات الصراصير التي يتعالى بين الفينة والأخرى يأز في آذاننا برتابة مملة.

نامت شقيقتي على السنابل الصفر المكسورة، وسحبتني من يدي إليها، وقعت بالقرب منها، ملاصقاً جسدي لجسدها، كتمت صرخة كادت تنطلق من شفتيّ بعد أن رأيّت "بوز أبو العرس"[1] يجري مسرعاً من خلف ظهر شقيقتي وهي تتنصت لأصوات الفلاحين الآتية من بعيد، ودون سابق إنذار هجمت على شفتي السفلى بشفتيها المكتنزتين بدم الشبق الحار، وشاركتها المصّ، والقُبل، حتى إنَّنا لا نعرف كيف تمددنا سوية على الأرض

١ - بوز أبو العرس: ابن عرس. حيوان أكبر من الفأر في المزارع.

المفروشة بالسنابل، التصق الجسدان، ضمتني لها بشدة، شاركتها الضم والتقبيل.

لاحت لي رقبتها البضة البيضاء تلتمع تحت ضوء الشمس، وكانت المناطق الحساسة من جسدينا في أشد تلاصقهما، والشمس فوق رأسينا لم تعد عذراء كشقيقتي التي ستكون عليه، شعرت بما يشبه الخضة، تداخل جسدينا فيما بينهما كأنهما حيّتان من هذه الحيّات في المزارع، أو مثل نبات أخضر متسلق يلتف على كل شيء.

تحركت لأبعد جسدي عن جسدها، إلّا أغَّها أبقتني في دائرة سيطرتها القوية، لقد تملكتها تلك الرغبة الجامحة، والجارفة، وتملكتني أنا كذلك، في أن نسقط في الهوة السحيقة، وكانت الحيّة التي تفح فحيحاً قد استيقظت في شقيقتي، صوتها مسموع على بعد أمتار، أحسست أن الذي بين أفخاذي يحاول السقوط في الهوة العميقة التي حفرتها شقيقتي لنا وشاركتها أنا في الحفر، فرضيت أن آكل من التفاحة الناضجة.

كانت الأرض صفراء وهي تعرض سنابلها الذهبية متلألئة تحت وهج الشمس، وفجأة تشنجت أطرافنا، ارتجفنا سوياً، كنا نختنق من وراء شفاهنا المتلاصقة وهي تمتص رحيق بعضها، عندها ضرب جسدينا وابل من مطر قوي مع"حالوب"[1] كبير، والشمس ما زالت ترسل الدفء والضوء نحونا، عندها تخلصت من سيطرة شقيقتي ونهضت بعد أن ذاب في جسدي "الحالوب" الذي تساقط علينا، وعلى السنابل الصفر، فأطفأ ما فيهما من حرارة، شعرت ببرودة تجتاح جسدي الذي كان حاراً قبل قليل.

كنت أول من قام من مكانه، ببطء وخفية عن أنظار الفلاحين لو كانوا موجودين، نظرت إلى الجهات الأربع كافة لم يقع نظري على شيء، سوى أطفال يلعبون بعيداً عنا، وأبقار عائدة لأهلها،

١ - حالوب: البرد الذي ينزل مع المطر.

والكلاب تحرسها، تسللنا بين السنابل وخرجنا وكأن شيء لم يكن.

كان المطر غزيراً إلّا إنه توقف فجأة ودون سابق إنذار).

قالت جدّتي وهي تضحك بفمٍ كفم رضيع بلا أسنان وهي تتحدث عن لسان "أنعم":

(فرحنا كثيراً، أمسكت "أنعام" بيدي وعادت بي إلى الحقل مرة أخرى، كنت مثل النائم أسير خلفها، هذه الفتاة لا تهدأ ولا تكلّ، ستفضحنا بين الفلاحين.

في المكان ذاته، مدت يدها ونزعت لباسي الداخلي، قبلتني قبلة حارة، وطويلة، وشهية، تحمل رضاب الشبق الذي (اندافت)[1] فيه، لم نتكلم، فقط شفاهنا هي التي تتكلم بلسان حالها المسكوت عنه.

كنا نعلم أن هذا الشعور بالأمان مبالغ فيه بعد أن استلقينا على السنابل المكسورة والرطبة من ماء المطر، وقد ارتفعت ملابسنا إلى صدرينا، ووسط جسدي شيء يتحرك نحو الأمام، كان الشبق قد أخذ مني مأخذاً، حتى إذا أتم ذلك الشيء الذي في وسط جسدى حركته، راحت السماء ترعد وتبرق، وتومض وميضاً حاداً يعمي الأبصار، نزل المطر مدراراً لا يبقي على أيّ شيء، حتى السنابل الصفر مالت وتكسرت وانحنت أرضاً من شدة الريح التي عصفت في المكان.

أصبحنا مكشوفين تماماً في هذا الحقل الأصفر، حيث لا أحد في الجوار سوانا أنا وشقيقتي "أنعام"، كل شيء قد دخل بيته وكأن منادياً نادى: من يدخل بيته فهو آمن من المطر والبرق والرعد، إلّا نحن المحبين لا أمان لنا.

قالت حبيبي:

- لماذا خاننا المطر؟.).

---

١ - اندافت: تمازجت.

وتغوّش كل شيء أمام عيوننا أنا وأخي"رياض"، غاب كل شيء، ثقلت جفوننا، فراحت تنغلق بسهولة.

انطفأ كل حس بالسمع عندنا نحن أحفادها الصبيان "رياض"و"دنيا" حيث تصفنا بالحلوين، وتوقف الزمن، رحنا في غفوة وسبات، تكلّلنا الأحلام الوردية الجميلة، والأمن والسلام.

***

الفصل الحادي عشر

لقد تغير الزمان كثيراً، حتى الحيوانات ما عادت كما كانت، بل أصبح وجودها لا يطاق. الفأرة تتنمّر على القط، والقط يتنمّر على الكلب، وهكذا، حيث ساءت أخلاق كل شيء في ذلك الوقت. حتى العلاقة قد تغيرت بين الأخوة أبناء الجدّ الأول الذي بنى الدّار الكبيرة والتي يقوم "الشفل" بتهديمها، حيث تعبق فيها رائحة الماضي القريب، وخمَة بالرطوبة، والرائحة الكريهة، والزفر السمكي، هذا الماضي الذي عاشه أجدادنا في هذه الدار منذ عشرات السنين، الماضي الذي خرج منه هذا الكيس الذي كان مخبّأً في المخزن الذي يضم كل الآثاث والأغراض القديمة التي تخلص منها أهل هذه الدار، وخوابي الطرشي، وباقات الخضروات المجففة.

ربما كانت لأحد أجدّادي هواية جمع الكتب وقراءتها. فقد جمع في هذا الكيس أربعة كتب لا أعرف سبباً وجيهاً لجمعها فيه. سأل والدنا جدّته العمياء ذات الصوت المبحوح عن ذلك، إلّا إنَّها لم تجبه، لأنها غاضبة منه. أكدت لأخي "رياض" أبو حديبة بأنني سأسألها عن ذلك وحتماً ستجيبني، لأنها ليست غاضبة مني كوالدنا، ونحن كذلك عينها خارج الغرفة هذه، و"الدابة" التي تحركها أينما تريد.

عندما كنا قرب دار الأجداد الذي يتهدم أمام أعيننا طابوقة، فيما كان الغبار يملأ الجو تحت الشمس التي لم تعد عذراء كما أخبرنا أجدادنا كعهدها السابق. أخرج والدنا كتابًا آخر من كيس الخيش القديم الذي تصلّب في أكثر من مكان. كان كتاب قد حال لون غلافه، وتصلّب في أكثر من مكان، وأصابت الرطوبة الكثير من أوراقه الصفر. كانت هناك ورقة دفتر صغير قد وضعت بين أوراق الكتاب.

فتح والدنا الكتاب الذي تبيّن أنَّه الجزء الأول من كتاب "الحيوان" للجاحظ، وهو الطبعة الثانية، ومن تحقيق عبد السلام هارون، وقد نشر من قبل مكتبة مصطفى البابي وأولاده في القاهرة – عام ١٩٦٥.

نظر إلى الحبر الأزرق الذي انتشر بفعل الرطوبة في صفحة الكتاب فبانت الكتابة تحت وهج الشمس المتقلّب، الذي يبعث الحرارة والضوء، غير واضحة، فكانت القراءة لِما مكتوب فيها صعبة جداً، إذ تداخل الحبر الأزرق مع الحبر الأسود للكتابة الأصلية. كان الحبر الأزرق يرسم خطوطاً تحت بعض أسطر الصفحة ذات الرقم (٢١).

قرأ والدنا السطور تلك المعلّمة بخطوط حبر أزرق بصعوبة بالغة. قال:

- (وقد ابتلي بأنّ أخته محمقة، وكذلك كان زوجها، فقالت لإحدى نساء لقمان: هـذه ليلة طهري وهي ليلتك، فدعيني أنام في مضجعك، فإن لقمان رجل منجب، فعسى أن يقع عليّ فأنجب، فوقع على أخته فحملت بلُقَيم، التي قتلها لقمان، فضرب المثل بقتل لقمان ابنته لُقيماً).

أغلق والدنا الكتاب وقال كأنَّه يحدث نفسه، أو يتكلم معنا:

- سنقرأ الكتاب في البيت.

هذا الكتاب الثاني الذي وضع في الكيس. كان الكتاب الأوّل هو جزء من كتاب "ألف ليلة وليلة" المعروف عندنا.

عندما وصلنا إلى بيتنا، وبعد أن رفضت جدّتنا العمياء الإجابة عن أسئلة والدنا، هرع والدنا إلى غرفته، وعلى سرير نومه "نفض"[١] ما في داخل الكيس، فتساقطت كل موجوداته، من كتب، وسجل، وكيس نايلوني أسود يحوي القرص اللدائني.

١ - نفض: أخرج الأشياء من داخله الكيس وذلك برجه.

كانت أمامه بلا ترتيب، سحب من بينها كتاب "الحيوان" للجاحظ، وراح يقلب صفحاته الواحدة تلو الأخرى، حتى وصل إلى ورقة الدفتر الصغيرة، ووجد على صفحة الكتاب عبارات قد وضع تحتها خطوط بقلم الجاف الأزرق.

عندما انتبه والدنا لوجودنا قرب سرير نومه أشار بيده إلى الكراسي المصفوفة قرب السرير، وطلب منا أن نجلس، امتثلنا لما قاله، وجلسنا على الكراسي بصمت.

قرأ والدنا بصوت كالهمس ما كان موجوداً في تلك الصفحة من الكتاب، والذي تحت سطورها خطوطاً بقلم حبر الجاف الأزرق. كنا نحن نستمع لما كان يقرأ دون أن نفهم شيئاً مما قرأ، وقبل أن نطلب منه أن يقرأ بصوت مسموع، وجّه سؤاله لنا قائلاً:

- ماذا يريد من هذه العبارة؟ إن كتاب "ألف ليلة وليلة" هو الآخر يتحدث عن عمليات تحدث بين شابّ وشابّة، هي أخته.

وعندما سألنا جدّتي عن هذه الحكاية وكتاب ألف ليلة وليلة، وكتاب الحيوان، حكت لنا كل ما يتعلق بهما، حتى "تغوّش"[1] عندنا كل شيء.

وتغوّش كل شيء أمام عيوننا أنا وأخي"رياض"، غاب كل شيء، ثقلت جفوننا، فراحت تنغلق بسهولة.

انطفأ كل حس بالسمع عندنا نحن أحفادها الصبيان "رياض" و"دنيا" حيث تصفنا بالحلوين، وتوقف الزمن، رحنا في غفوة وسبات، تكلّلنا الأحلام الوردية الجميلة، والأمن والسلام.

***

١ - تغوش: أي أصبح صعب الرؤية.

الفصل الثاني عشر

في وقت آخر، وبعد أن تركنا الدّار الكبيرة لأجدادي تتهاوى تحت ضربات "كيلة الشفل"، عدنا بسيارة والدنا السوداء إلى بيتنا الذي فيه جدّي وجدّتي، وبعد أن رفضت جدّتنا الحديث معه، جلس والدنا على سرير فراشه المرتب، الذي كانت ترتبه خادمة البيت دائماً.

رفع والدي كتاب "المرأة المصرية القديمة" بين يديه وراح مسرعاً لجدّته التي لم تحر جواباً لسؤاله عن سبب وجود هذه الكتب في الكيس مخبأة في مكان مخفي من الدار، وكالعادة رفضت أن تجيبه عن سؤاله، تركها جالسة بلا حراك وهي تبسمل، وتحوقل، وتقرأ أدعية، كما تقول لنا عندما نسألها عن تمتماتها المستمرة، وعاد إلى غرفته غاضباً منها.

غاضبتْ جدّتي والدنا منذ أيّام فلم تجبه عن أيّ سؤال عن ماضي أجدادنا الذين مضوا الى العالم الآخر، وعن دارهم الكبيرة، وخاصة عن أجدادنا الأوائل الذين تركوا لنا هذه الثروة والأملاك الكثيرة، وهذه اللعنة المستمرة في أخي "رياض" وحدبته التي تعيق حركته، وفي جدّي، جد والدي وزوج جدتي العمياء، الأعرج، والمقعد في سريره، ابن الزنا كما يصفه بعض الأهل والأقارب وهم يذكرون لعنات الله عليهم كيف نزلت على ابنهم الأعرج، كما كانوا يظنون ويعتقدون جازمين بهذا الأمر، وعن أبي، والدنا الأخرس، والأعور العين، ولم ينجُ من هذه اللعنة إلّا والدنا على الرغم من تأخره في الفهم، إلّا إنّها ظهرت في أخي "رياض" أبو حديبة.

راح يقلب الكتاب الذي حمل غلافه صورة لتمثال فرعوني مع بعض النقوش الهيروغلوفية، بلون سمائي فاتح، دخاني اللون. قلب صفحاته الصفر، فتصاعد الغبار الناعم منها، وحين اهتدى

إلى صفحة مطوية فيه، فتحها، فوجد خطوطاً حمراء تحت كتابتها تعلّم إلى شيء ما.

كنا أنا وأخي "رياض" بحدبته الكبيرة قد دخلنا الغرفة خلف والدنا، وشاهدناه ينفض كيس الخيش ويأخذ الكتاب بعد الكتاب، ويفتحه على ورقة مطوية، أو وردة ذابلة تقع منه، أو ورقة دفتر خارجية وضعت فيه، وقد وضعت هذه الورقة المطوية في هذا الكتاب بين الصفحة (١٦٠)، والصفحة (١٦١)، والمعنونة "أسطورة إيّزيس وأوزيريس وتوابعها". لم نعرف بهذين الاسمين، ولم نسمع بهما من قبل.

كتب على الصفحات الأولى من الكتاب إنه من تأليف د. محمد فياض. ويحمل عنوان "المرأة المصرية القديمة".

قرأ والدنا ما كتب بقلم الجاف بخط سيء، وكأن الذي كتبه طالب صف أوّل ابتدائي، أو شخص مخمور، على الجانب الأيّسر من الصفحة، بصوت مرتفع، وكأنه يريد أن يسمعنا ما يقرأ، أنا وأخي "رياض" أبو حديبة، دون أن ينظر إلى الناحية التي نقف فيها، أو يحدث شخصاً كبيراً غيرنا:

(عندما نتخلص من كل ما في نفوسنا من حب للآخرين، ونترك خلفنا الأخلاق الحميدة، وننظر إلى ما في يد الآخر من أشياء كنا نحلم بامتلاكها، ومنها السلطة والحكم، نسقط نحن "البشر" في هوة القتل، تلك الهوة التي قُتل فيها قابيل أخيه هابيل، وتجددت هذه الجريمة مرة أخرى في قتل"ست" في مصر الفرعونية لأخيه "أوزير"، وراحت زوجته التي هي شقيقته تجمع أشلاءه وردّت إليه الحياة، وجامعته، فحملت منه، وأنجبت طفلها "حور").

كانت تلك الكلمات هو ما سُطّر في جانب الورقة الأيسر بقلم الجاف الأسود، إنَّه من كتابات أحد أجدادنا الأولين، وحتماً إنَّه "أنعم".

ثم قرأ الأسطر التي تحتها خط بقلم الجاف الأحمر:

(كان"أوزير"(أوزيريس) و"أيّسة"(إيّزيس) أخوين، وزوجين من مجموعة رباعية يكملها"ست" وأخته"نبت حت". وكان الأربعة رعيلاً أول، جمع بين الإلوهية البشرية في أعقاب انفصام السماء عن الأرض، وبنقلة سريعة، اعتبرت الإسطورة أوزير ملكاً على البشر يحكم بينهم ويهديهم إلى ما يصلح أمرهم، إلى أن نقَمَ أخوه"ست" عليه منزلته، فكاد له وقتله، ثم رماه في اليم واغتصب عرشه، وظلت "أيّسه" وفيه لزوجها الشهيد، فداومت البحث عن بدنه حتى عثرت عليه واستعانت بسحرها حتى ردت روحه عليه لفترة من الوقت، وحطت عليه كما يحط الطائر، فحملت منه حملاً ربانّياً، ووضعت منه طفلها "حور"(حورس). ثم قامت على تربية ابنها خفية بمعاونة عدة كائنات، فأرضعته بقرة، ورعته معها سبعة عقارب، وسرعان ما شب الوليد سريعاً "كما يشب أبناء الأساطير الذين لا يخضعون في نموهم لحكم المنطق والزمن").

عند هذا الحد توقف والدنا عن القراءة، كما توقفت الخطوط الحمر التي رسمت بقلم الجاف تحت بعض سطور الكتابة وكأنها كانت تؤشر إلى شيء فيها.

"صفن" والدنا صفنة طويلة خلتها دهراً. كان يحدق في نقطة حددها في السقف. أغمض عينيه، فتركناه هو والصمت يرحلون بترك الكتاب يسقط من بين يديه، وراح في تأمل ما تركه إلّا بعد أن ناديته أنا قائلة: أبي ماذا بك؟

كان الكتاب مطبوعاً عام ١٩٩٥، وعند تصفح والدنا له ونحن قرب دار أجدادي الذي يهدمه "الشفل" طابوقة طابوقة، كان كاملاً ونظيفا سوى بعض التصلب القليل الذي اعتور غلافه وبعض صفحاته الصفر.

لم يتعب والدنا كثيراً مع الكتاب، فقد كانت أوراقه نظيفة من بلل الرطوبة إلى حد ما، أعاده إلى كيس الخيش مرة أخرى.

سأل والدنا وكأنَّه يوجه السؤال لنا: لماذا هذا الكتاب مخفي في هذا الكيس مع كتاب ألف ليلة وليلة، وكتاب الحيوان، وقصص الأنبياء، والسجل، والقرص اللدائني؟

لم نحر جواباً لسؤال والدنا، كان كل منا ينظر للآخر باندهاش، لم نملك جواباً حتى، كيف نعرف بنيّات أجدادنا، وما كانوا يفكرون فيه؟ الإجابة حتماً عند جدّتنا الجالسة في غرفتها وهي تقرأ التعاويذ لتطرد الأشباح والشياطين كما تقول، هي تعرف لماذا أخفى أحد أجدادنا هذه الكتب ومات وهي بقيت مخفية طيلة هذه الأعوام.

كان والدنا قد تاه مع هذه العبارة، وعندما انتبه لنا مرة ثانية، بعد أن أخذ نفساً عميقاً، صاح بنا كما لو كان منزعجاً من وجودنا:

ـ لماذا تجلسون في غرفتي؟ هيا اخرجوا.

قلنا له: أنت طلبت منا أن نجلس.

قال: هيا اخرجوا من الغرفة.

نهضنا وخرجنا من الغرفة.

لا نعرف ماذا قرأ والدنا في الكتاب، فطلب منا أن نخرج من الغرفة بعد أن طلب منا الجلوس قبل قليل، إلّا إنَّنا عرفنا المكتوب فيها في وقت آخر ومن جدّتي.

تركنا أنا وأخي "رياض" أبو حديبة والدنا وخرجنا من الغرفة لنذهب إلى غرفة جدتنا العمياء ذات الصوت المبحوح، التي تطرد الأشباح والشياطين من الغرفة هذه اللحظة، وفي كل لحظة، ببسملاتها وتعاويذها وتلاعبها بحبات المسبحة السود.

سألني "رياض" ونحن نسير نحو غرفة جدّتنا:

ـ أتعتقدين أنَّنا سنجد عندها جواباً لسؤال والدنا؟

ـ لا أعرف. أجبته دون وعي مني.

كنت أنا الوحيدة التي أصدّق ما تقوله جدّتي، وكان والدنا يكذب كل ما تقوله، إلّا ما كان عليه دليل وبرهان يعضّده. وكان

مضطراً، في بعض الأحيان، لسماع الأخبار الماضية منها، لأنَّ لا أحد كلّمه عن ذلك الماضي، ولا جدّي الملقى على سرير المرض، ربما يجد شيئاً ما فيها صادقاً إلى حد ما.

مرة، جرى حديث طويل بين والدنا وجدتنا، إذ أنكر عليها ما قالته من أخبار ماضية. قال لها:

ـ هذا غير صحيح، لم يحدث مثل هذا، إنَّه شيء غريب وبعيد عن حقيقة مجتمعنا الإسلامي أن يتزوج الأخ شقيقته وينجب منها أطفالاً، هذا بعيد عن كل تصور، وراح يبحث عن بصيص أمل لدليل وبرهان يثبت قول الجدّة.

من تلك اللحظة وجدّتي لم تخبره بشيء من أخبار الماضي، ولا أجابت عن أيّ سؤال سأله.

كنت أنا الوحيدة التي تسأل جدّتها العمياء فتجيبها، لأنَّ والدنا لا يصدق أكثر الأخبار الماضية التي تنقلها لنا هذه الجدّة.

روت لنا جدّتنا العمياء ذات الصوت المبحوح الكثير عن حياة جدّنا "أنعم" برأسه الصلبة، وجدّتنا "أنعام" برأسها الصلبة أيضاً، عن حبهما، وعشقهما، وزواجهما، وولادة ابنهما زوج هذه الجدة والذي ينام في غرفة أخرى مستقلة بمرافقها، وجوها المليء بالديتول، وحبات الأسفنيك التي توضع بين طيات الملابس، والحفاظات الكبيرة التي تغيّرها المرأة التي جاء بها والدنا لتخدمه، في كل مرة يبلل جسده.

***

الفصل الثالث عشر

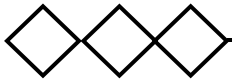

(عندما نريد أن نغني فإن ألحان غنائنا، وكلماته حزينة، وصوت المؤدي، فيه شجن يفطر الكبد).

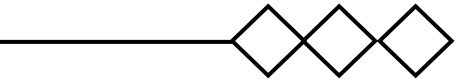

هكذا قالت جدّتنا العمياء، التي تحافظ على شيء من حظوة على أهل البيت، إذ كان لها رأيّ في كل شيء على زوجها الأعرج، وحفيده، والدنا، سوى ما كان قد أحدث الجفوة بينهما، وأبنائه الذين هم نحن، بعد أن جلسنا حولها، أنا وأخي "رياض" أبو حديبة، فوق سرير نومها الخشبي.

كانت، عندما دخلنا عليها غرفتها شبه المظلمة والتي أضأنا فيها مصابيحها، وكذلك العارية جدرانها من أيّ شيء، تلهو بمسبحتها، وتتمتم بصوت لا أحد يسمعه، فيما حبات المسبحة تطقطق نازلة الواحدة على الأخرى بصوت روتيني كحبات المطر عندما ينزل على سطح من الصفيح.

قلنا لها بصوت واحد:

- مساء الخير أيّتها الجدة الحبيبة.

ردت علينا بصوتها المبحوح، وابتسامة صغيرة:

- أهلا وسهلا بأحفادي الحلوين.

ثم "تزحزحت"[1] من مكانها على السرير بفراشه الناعم، لتترك لنا بعضاً من المكان على السرير الخشبي لنجلس عليه.

(١) تزحزحت: تحركت لتغير مكانها.

تركنا والدنا في غرفته هو وكيس الخيش، والكتب التي فيه، كان يطالع في تلك الكتب، وجئنا لجدتنا لنسألها عن سبب جمع هذه الكتب في ذلك الكيس.

تنحنح صوتها المبحوح، وبظهر محدودب، وتجاعيد ملأت صفحة وجهها، سلقت فمها جيداً، ووضعت مسبحتها في راحة كف يدها اليسرى وقالت وهي تروي عن لسان جدّي، زوجها، الأعرج:

(كنت صبية عندما تزوجني جدكم، لا أخت ولا أخ لي، وقد فُقد والدي وعمري سنة في "دكة"* عشائرية، كنت ألعب بملاعب الأطفال، ولي لُعَبِي الخاصة التي صنعتها أمي لي من قماش وقطن، عندما شاهدني جدكم في أحد سفرياته إلى المزرعة فأعجبته، فطلب من والديه أن يتزوجني، وكان هو الوحيد عند "أنعام" و"أنعم"، وهكذا زوجني جدّي لأبي منه، ولم أنجب من جدّكم، والد، والد، والدكم، إلّا بعد أربع سنوات.

كان جدّي لأبي يعمل مزارعاً في أرض "أنعم"، ولم يكن يعرف بأنّ "أنعم" و"أنعام" أشقاء من أب وأم، ولا كانت أمي تعرف ذلك.

كان جدّكم أعرج، وسمين، وكنت أنا ما زلت صبية كشطب الريحان، بضفيرتين طويلتين منسدلتين على ظهري، وعينين كعيني بقراتنا، ولم تكن لي كلمة أمام كلام جدّي، فعشت بينهم كبنتهم، وكان "أنعم" و" أنعام" يدللونني ولا يرفضون لي طلباً.

بعد أن ولدت جدّكم، أبو والدكم، "فرّوا"[1] به فرحين مسرورين. وكانت الأرض لا تسع فرحتهم، حتى إن جدّكم "أنعم" وزّع حلي ذهبية على النساء اللاتي يهنئنه، وبالكاد كان قد تعلم وهو في هذا السن أن البقرة لم تكن تبيض لكي يكون عندها عجل صغير، وإنما تلد مثل البشر.

(١) فرّوا: اهتموا بفرح وسرور.

في نهار يوم ربيعي، وهو اليوم السابع لميلاد جدّكم، وكان أعور العين، جاءوا بـ "كاولية"[١] وأقاموا حفلة في إحدى مزارعهم الكبيرة.

تجمع المزارعون لهذه المزرعة الكبيرة ومزارعو المزارع الأخرى لـ "أنعم"، في هذه الحفلة، وذبح ثوراً كبيراً بهذه المناسبة، وتحت سعفات النخيل الخضراء دائماً، شرب فيها جدّكم "أنعم"، وابنه، أكثر من بطلين من "الويسكي" اللندني. وغنّت فتاة "كاولية" أغنية "الهچع"[٢].

لا أعرف من الذي طلب منها أن تغني هذه الأغنية، إلّا إنَّها عندما غنتها قام جدّكم "أنعم" وأخذ يرقص كالغجر على لحن الأغنية، وقامت جدّتكم "أنعام" كذلك، وأخذت تتلوى كالغجر عندما يرقصون، تشابك الاثنان، ضمّها له، وضمّته لها، أخذ يقبلها من كل جسدها، من رأسها حتى وصل إلى قدميها فقبلهما قبلة طويلة شعرنا أنَّه قد ثمل ونام، إلّا إنَّه تهاوى وسقط على الأرض لا حراك فيه، فيما كانت الفراغات المتذبذبة بين ظلال أوراق الأشجار العالية للمزرعة ترسم عليهم أشياء كأنَّها نقود معدنية تلمع في ضوء الشمس.

انقلب الفرح إلى عزاء على "أنعم"، صراخ وعويل، بكاء ونحيب، دموع وأهات، انقلبت كل أفراحهم في ذلك الوقت إلى أحزان، وهكذا باتت أغانيهم المطلوب منها أن تكون مفرحة وزاهرة تغنى بحزن وألم وأسى، أو إنَّها عبارة عن تطبيل و"هنْجلة"[٣] فارغة، لأنَّهم لا يريدون أن يفرحوا أساساً، بل تبقى أغانيهم فارغة من الفرح.

---

(١) كاولية: غجر، نوّر.

(٢) الهچع: لون غنائي.

(٣)هنجلة: الرقص على ساق واحدة.

سكت كل من في المزرعة، من أهل وأقارب، وخدم وحشم، وحيوانات، وطيور، حتى كؤوس الشراب ظلت في مكانها لا أحد يحركها أو ينقلها من مكانها، تغيّبت الكلمات من على الشفاه، فصمتت الأفواه، وراحت العيون لا تبصر سوى الفراغ الأسود الحزين الذي لف المكان كله.

عادوا بـ"أنعم" جثة هامدة إلى بيته في المدينة، فيما جدّتكم "أنعام" لم تتفوه بكلمة واحدة، ظلت صامتة لا تتكلم، كانت عيناها شاخصتين إلى أمام، لا ترمشان، وقد "وشل ـ أي قلّ" ـ منهما الدمع، فيبس كل شيء فيهما، حتى البصر.

في صباح اليوم الثاني، وكانت الشمس ترسل أول شعاع لها، ماتت جدّتكم "أنعام". لحقت زوجها، حبيبها، بعد أن رقصا رقصتهما الغجرية الأخيرة على أنغام " الهچع"، ودون أن تصرخ صرخة واحدة.

كانت الحلي الذهبية هي آخر ما كانت تفكر في اقتنائه، لذا فإن كوب الشايّ المثلّج الذي اعتادت أن تشربه صباح كل يوم، قد ترك، وقد ذابت قطعة الثلج فيه، على الكومدينو التي يقبع قرب سرير نومها، فيما الكرسي الهزاز كان ساكناً بإهمال في زاوية من الغرفة الوثيرة بالآثاث، هو أعز ما تركته عند موتها.

رحل جدّكم "أنعم" وهو يقبل أقدام محبوبته، جدّتكم، كما كان يقبل شفتيها العنابيتين، ورحلت جدّتكم "أنعام" قهراً على رحيل محبوبها.

اجتمع الأقارب والعشيرة، وقرروا أن يُدفنا معاً في قبر واحد، في الدّار الكبيرة التي بناها الجدّ الأكبر لأولاده.

قسم من الأقارب يعرفون بقصة حبهما وزواجهما، وقسم لا يعرف بذلك، أما العشيرة فلا تعرف أبداً، وهكذا دُفن الاثنان في قبر واحد.

الذين يعرفون بحقيقة أنَّهما أشقاء، قال قائل منهم للذي يعرف كذلك: استغفر الله، لا تدفنوهم في النجف، أمير المؤمنين لا يقبل

بهذا، إنَّه الفساد بعينه، لعنة ونزلت علينا، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

أما الذين لا يعرفون بحقيقة كونهم أشقاء من أب وأم فقالوا:حب "أنعم" لـ "أنعام" ليس مثله حب في التاريخ، علينا أن لا نفرق بينهما في الممات.

وقالوا كذلك:أيّنما تموت تُقبر، هكذا قال الدين. وقرر الجميع أن يدفنا في الدّار الكبيرة.

رحل الاثنان بقطعة قماش بيضاء لا جيوب فيها، أخذوا معهم حبهم الأبدي الملعون عند البعض، وتركا هذا الكيس وما فيه يحكي أهم ما في سيرة حياتهم إلى الأجيال اللاحقة، بعد أن أخفوه وراء أحد حيطان مخزن البيت المتهرئ الجدران، والمتشقق الزوايّا والأخاديد، وجدرانه الأربعة عارية من كل شيء، وقد جمعت فيه أغراض أكثر من مئة عام مضت، فانتشرت فيه رائحة العطن، مثل "بستوكات"[1]مخلل الطرشي، والثوم، والبصل اليابس، والخضروات المجففة، وبعض الأثاث القديمة، وبنوا عليه جداراً جديداً، و"لبخوا وبيضوا"[2] ذلك الجدار الجديد حتى لا يعرف به أحدٌ.

وتغوّش كل شيء أمام عيوننا أنا وأخي"رياض"، غاب كل شيء، ثقلت جفوننا، فراحت تنغلق بسهولة.

انطفأ كل حس بالسمع عندنا نحن أحفادها الصبيان "رياض" و"دنيا" حيث تصفنا بالحلوين، وتوقف الزمن، رحنا في غفوة وسبات، تكلّلنا الأحلام الوردية الجميلة، والأمن والسلام.

****

(١) بستوكات: جرار.

(٢) لبخوا وبيضوا: اللبخ هو تغطية الجدار بمادة الاسمنت والرمل. والبياض تغطية اللباخ هذا بمادة الجص أو الجبس.

الفصل الرابع عشر

-١-

غادَرَنا جدّنا، جدّ والدنا، وزوج جدّتنا، جدّة والدنا، العمياء، المبحوحة الصوت، من مرض سرطان الحنجرة الذي باغتها قبل سنوات، إلى عالم آخر غير عالمنا هذا ولم نفهم عنه شيئاً، ولا أمدّنا والدنا بشيء عنه، وكل الذي فهمناه هو من يذهب إلى ذلك العالم لن يعود أبداً، ذهاب بلا عوده، وجدّنا ذهب ولم يعد إلينا ثانية.

جدّنا هذا الأعرج، والسمين، والمستلقي في سريره دائماً، وخادمة سوداء تغير له حفاظاته، وقد طالت لحيته البيضاء ونسي والدنا أن يشذبها له كما كان يفعل بين فترة وأخرى، هو ابن "أنعم" و"أنعام" الأشقاء الذين هاموا ببعضهم حباً، وتزوجوا بمباركة والديهما، وسكوت بعض رجال الدين عنهم، وبعض الأقارب، بعد عام ٢٠٠٣ الذى مضى عليه حوالي مئة عام.

دخل عليه أخي أبو حديبة فرآه مُلقى على الأرض، منكباً على وجهه، والخادمة غير موجودة.

الغرفة وخمة بالرائحة الكريهة، عاد إليّ مسرعاً وأخبرني بذلك، فأسرعت إلى جدّي في غرفته فرأيّته كما وصفه لي أخي، فقد كان هناك بلل على الأرض من أثر البول، ولا نعرف فيما إذا كان جدّي قد تبول قبل أن يسقط، أم كان ذلك بعد سقوطه على الأرض، وأيّن هي الحفّاظة؟.

عدت إلى غرفة جدّتي فرأيّتها تبسمل من خلال شفتيها، وتلعب بمسبحتها، أخبرتها بما رأيّت. قالت اذهبي وأخبري والدك بذلك، وكأنَّ الموتى ليس من اختصاصها.

تجرأنا، لأول مرة، أنا وأخي "رياض" أبو حديبة أن نرى وجه الموت كيف يكون، وكان هو ينظر لنا، فهربنا خارج غرفته.

كانت الشيخوخة قد استفحلت علية في الأيّام الأخيرة، ولم تكن الخادمة مرتاحة منه ومن طلباته غير المتيسرة، والرغبات التي كان ممنوع تحقيقها له.

بعد أكثر من خمسين عاماً على هذه الحادثة، وفي تلك الجلسات التي كانت تضمني مع زوجي وأخيه صلاح وزوجته، وأنا على فرش المرض، تساءلت فيما إذا كان جدّي قد تبول قبل أن يموت أم كان ذلك بعد موته؟ وهل هذا تعبير عن رفضه المستميت لتلك اللعنة المزعومة؟ أم كان ذلك الفعل اللاإرادي استهجانا لتأثيرها فيه؟ أم أن بوله هذا جاء كجواب لما يحدث في الواقع المتردي بعد الألفية الثانية، والذي كان مسجوناً في أقفاصه الحديدية؟

لم أصل إلى جواب شاف عن ذلك السؤال الذي فتح جروحاً لي كنت أحاول على مر السنين أن أعالجها بالنسيان، وفي الوقت نفسه لم أذكر ذلك لهؤلاء الجماعة.

انتهت أيّام الفاتحة على جدّي، الرجل الأعرج، الذي رأيّناه لأول مرة ملازماً لسريره، وخادمة كبيرة السن، تقوم بخدمته حتى تبديل حفاظاته.

جدّتي هذه التي مثل عود خيزران، طويلة، خفيفة كشطب الريحان، لم تذرف دمعة واحدة عليه، وكأنها لا تعرفه، سوى أنَّها كانت طوال اليوم تبسمل وتحوقل وتبخّر غرفتها ببخور خاص يأتيها به والدنا من البصرة عندما يذهب إليها كل شهر، حتماً، اعتقدت أنا وأخي أبو حديبة سوياً، أن الأشباح والشياطين لن تدخل غرفتها المسوّرة بكل هذه البسملات، وترديدها عبارة لا حول ولا قوة إلّا بالله، وهذا الدخان الذي يحمل رائحة زكية من رائحة البخور، وضربات خرز مسبحتها ذات المائة خرزة وخرزة واحدة المتتالية الرتيبة.

كان جدّي سليل العائلة الثرية، ملازماً لفراشه قبل أن نولد نحن التوأم، وقبل زواج والدنا من أمي التي فقدناها عند ولادتنا، جدّنا هذا هو الذكر الوحيد لوالديه، والذي كان هو الآخر الذكر الوحيد لوالديه، والذي لم نر وجوههم، وتزوج شقيقته، أما جدّنا، والد أبينا، فقد كان الذكر الوحيد لهذا الجدّ الذي انتهت فاتحته الآن، إنَّها سلالة وحيدي الذكر، لعنة أثر لعنة أصابت هذه العائلة الثرية فجعلتهم وحيدي الذكور العجزة.

هل كانت لعنة حلت بهم؟ سألت أخي أبو حديبة عن ذلك ولم يحر جواباً، ولم أصل كذلك الى أيّ جواب يشفي غليلي، فامتنعت عن القول بهذه اللعنة.

جدّ والدنا هذا لم ينبس ببنت شفة أمام أيّ شخص عن أبيه، وأجداده الأوائل، بل ترك الحديث عنهم لزوجته العمياء ذات الصوت المبحوح والتي تقبع في غرفتها جالسة على سريرها الخشبي، كان كل من يسأله عن آبائه السابقين يرد عليه قائلا: زوجتي تعرف كل شيء، اذهبوا لها واسألوها وهي تحكي لكم الحكايات، وتروي لكم الروايات، وتجيبكم عما تسألون. كان العرج هو ما حصل عليه من والديه، كما حصل ابنه، والد والدنا، على عينه العوراء، والخرس.

يقال إن آباءنا يورّثون لنا عند موتهم ثلاثة أمور هي: الصلع، والدَيْن، والفقر، وكلها مسائل ترمينا بالعجز، وها نحن نرث منهم العجز، إنَّنا أبناء عجزة.

كانت المرأة التي تقوم بخدمته قصيرة القامة، سوداء، وتعيسة دائماً. ذات رائحة زكية باستعمالها عطر ماء الورد الذي يأتي به والدنا إليها من السوق.

جاء بها والدنا من القرية لتخدم جدّنا منذ أن مرض وقام يستعمل الحفاظات الكبيرة المعدة لمثله من المرضى بسلس البول، وانهيار أعصاب بدنه، وفقدان السيطرة عليها.

***

-٢-

جدّنا هذا، يملك كل الثروة المادية والمعنوية التي ورثها عن أجداده. ابن العائلة الثرية والكبيرة، ذات الأمجاد، ويملك كذلك العجز، ويورثه لأبنائه.

مرة سألناه عن أبيه، فقال لنا: اذهبوا إلى جدّتكم لتحكي لكم حكايته.

ذهبنا إلى جدّتنا ذات الصوت المبحوح، والعمياء، وحكت لنا حكاية هذا الجدّ الذي تزوج من شقيقته فأنجب الذي أنجب من كان سبباً في مجيئي أنا وأخي "رياض" أبو حديبة.

قالت وكأنها شاهدة عيان لِمَا حدث لهذا الجدّ الذي تزوج من شقيقته:

لم يقبلا بالواقع ولم يستسلما له، بل إنَّهما لا يخشون هذا الواقع، إذ قالا لوالديهما إن الواقع هذا أمر عرضي، إنه مرسوم بالخطأ، نحن نرفضه وغير ملزمين به، ولا نكبّل أنفسنا بقيوده، نحن أقوى من هذا الواقع فلا شأن لنا به، وهكذا خرجا من "طور"* هذا الواقع، وطور والديهما، والمجتمع ككل.

إنَّهما رفضا أن يبلّغا والديهما عن الأمر الذي أغراهما وزين لهما مثل هذا الزواج، وكذلك الفيلم الذي شاهده "أنعم" في السينما، وشاهدته كذلك "أنعام". وما آلت إليه بحوثهما في الكتب والمصادر التي تتحدث عن ذلك، فكان ما وجدوه في قصص الأنبياء خير دليل لهما.

وجدا في قصص الأنبياء أن أولاد جدّهم آدم وجدّتهم حواء قد تزوجا دون أن يتحدث عنهم أحد، قابيل تزوج أخته شقيقة هابيل، وهابيل تزوج أخته شقيقة قابيل، فبدأ الصراع بينهما، إذ تذكر المصادر أن التنافس قد حدث بينهما بسبب جمال أخت قابيل الذي لم يقبل هذه القسمة، وإنما أراد هو الزواج من أخته، شقيقته،

وبعد أن طلب منهما آدم أن يقرّبا قربانا لله، ومن يتقبل قربانه فهو الفائز بشقيقة قابيل، وكان قربان هابيل هو المقبول عند الله.

هكذا سارت أمور البشرية إلى يومنا هذا حتى جاء الدين، إذ قال جدّكم الأكبر "أنعم": إن الدين قد جاء لمنع مثل هذا الزواج، مع العلم أن ابراهيم تزوج من أخته سارة كما في الكتاب المقدس، وما جاء في الصحيح، وفي كتاب "قصص الأنبياء". وتزوج فرعون أخته كذلك. ونام لقمان مع أخته فحملت منه، وتزوج شاب في ألف ليلة وليلة من شقيقته، هكذا سارت الأمور.

هذا هو السبب الرئيسي الذي كانت هذه الكتب والفيلم والسجل مجموعة كلها في كيس الخيش ومخبّئة في الدّار الكبيرة، مثل كتاب ألف ليلة وليلة، وكتاب الحيوان، وكتاب المرأة المصرية القديمة، وكتاب قصص الأنبياء.

عندما ناقشهم والدهم في ذلك الأمر وكانا واقفين أمامه، أطرقا في الأرض ليس خوفاً أو خجلاً من الأمر بقدر ما كانا يعلمان أن والديهما سيقتنعان بوجهة نظرهما في النهاية.

قالوا لوالديهما:

- كيف تزوّج أولاد آدم؟

وسألت"أنعام" والديها قائلة:

- ألم يتزوج الأخ من أخته؟ فلماذا لم يعترض أدم وحواء؟ ها؟

قال "أنعم":

- نحن أبناء الطبيعة الجميلة كما كان أولاد آدم وحواء أبناء تلك الطبيعة العذراء، فتزوج كل ولد أخته ولم يعترض أحد.

نافحًا عن وجهة نظرهم، ولم تفد معهم كل النقاشات، كانت لهجتهم حادة في الكلام مع والديهما وفيها ثورة من الغضب النزق، وأصرا على ذلك، ولم يغيرا رأيهما، مما اضطر الوالدين أن يسكتا عن هذا الزواج عندما وجدوهما مصرين على تنفيذ رغبتهما هذه.

فقد نشأ حبهما في لندن، وظل مستمراً حتى توطّد عندما سكنوا في شمال العراق، في مدينة أربيل بعض الوقت، وقد جمعتهم الصداقة مع أولاد اليهودي الذي كان جارهم حيث عاد إلى العراق من إسرائيل قبلهم ببضعة شهور، بعدها عادوا إلى دار جدّهم الكبيرة، والآن يجب أن يكلل هذا الحب بالزواج الأبدي.

لقد توقف الزمن، أو أنَّه عاد لقرون مضت، وجاء الزمن الصعب الذي تغيّر فيه البلد، وتغيرت فيه صور كبيرة لشخصيات في الشوارع التي كانت الريح تتلاعب بها فتختفي لتظهر أخرى بعد يوم أو عدة أيّام، وتبدلت عناوين لمنشآت خدمية، ورفرفت أعلام بألوان عديدة، منها الأسود، والأخضر، والأحمر، وارتفعت لافتات تثقف لهذا الحزب أو ذاك، وظهرت أكثر من مئتي صحيفة ومجلة للعلن، لتثبت أن الغزو والاحتلال جاء بالحرية والديمقراطية، تاه كل شيء، وضاع البلد.

لم تعد الأدلة والبراهين كافية لمعرفة الحقيقة، حتى الغبار بدا وكأنه يملأ شوارع المدن العراقية، والأرض باتت وكأنها تحركت تحت أقدام الناس، كل شيء لم يعد مستقراً، ولا آمناً.

أصبحت مدينتنا، كباقي مدن البلاد، والموبايلات، وبعض قنوات التلفاز، تختنق بالأوهام، والخرافات، والأساطير، واللامعقول. في هذا الجو الخانق مارس والدهما الأبوة من خلالهما، كما مارست والدتهما الأمومة كذلك، فكان الحب لجدّكم الأول وجدّتكم الأولى من قبل والديهما كبيراً جداً.

واصلت الحياة كعادتها كل يوم، الشمس تشرق من الشرق، وتغيب من جهة المغرب، واليوم ليل ونهار، وبات الناس يعيشون يومهم، وهو كفافهم الذي وعدوا به، وعاش الشقيقان المتزوجان حديثاً ولم يخافا من أيّ شيء، لا أحد في العالم يمنعهما من إتمام الزواج، لا أحد، فالحرية والديمقراطية موجودان في العراق الجديد.

أصبح الشقيقان المتزوجان تحت الشمس الجنوبية الحارقة التي ذاب بريقها زرقة السماء الصافية.

استمرت جدّتي تحكي لنا باقي الحكاية التي رفضت أن تحكيها لوالدنا وهي تعرف أنَّنا سنخبره الحكاية كلها، وهذا سببٌ كافٍ يجعلنا نحب جدّتي، فقالت:

اقتنعا على مضضٍ، لأنَّه لا كبير في البيت، إن كان هذا الكبير أبوهما، أو كان الكبير أمهما التي كانت صارمة في عدم قبول هذا الزواج في البداية، منذ أن كانوا في لندن، وكذلك في أربيل، على الرغم من أن المجتمع العراقي الذي يعيشان في كنفه رفض ذلك، وبعض رجال الدين سكتوا عنه، ربما لمكانتهم الاجتماعية والمالية.

لم يبق للنهار فسحة من الوقت، فقد اقترب المساء من غرفة جدّتنا، فبدأ الظلام يزحف علينا شيئاً فشيئاً، كما زحف أيّام ما كان جدّنا الأول وشقيقته جدّتنا الأولى يصرّحان برغبتهما بالزواج أمام والديهما، كانت جدّتنا تعرف أن الليل قد (أرخى سدوله) فلم تقل كلمة، لأنَّها فاقدة البصر، إلّا أن بصيرتها كالحديد، أو أشد.

وعلم بالفضيحة، كما أسماها بعض الأهل والأقارب من منظور ديني بحت فيما بعد، جهتان هما والديهما، وبعض خاصتهم من بعض الأهل والأقارب.

وأكملت جدّتنا حكايتها قائلة وهي مستلقية على السرير الخشبي:

لقد أذابوا كل الموانع التي وقفت أمام زواجهما كقطع الثلج في صيف عراقي لاهب، إنّهم تحدوا كل شيء وقد حققوا معنى المثل الشعبي الذي يقول: (مرگتنه على زياگنا)[1]، وكانوا لا ينظرون إلى السماء لأن نظرهم متشبث بالأرض، الأرض هي الواقع.

(١) مرگتنه على زياگنا: المرق= السوب. زياگنا= مفردها: زيق وقد تم تعريفه. وهو مثل شعبي.

وتغوّش كل شيء أمام عيوننا أنا وأخي"رياض"، غاب كل شيء، ثقلت جفوننا، فراحت تنغلق بسهولة.

انطفأ كل حس بالسمع عندنا نحن أحفادها الصبيان "رياض" و"دنيا" حيث تصفنا بالحلوين، وتوقف الزمن، رحنا في غفوة وسبات، تكلّلنا الأحلام الوردية الجميلة، والأمن والسلام.

***

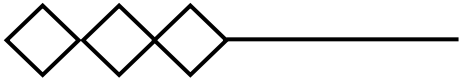

تفصيل آخر لما حدث
"خسوف شمس قابيل"
"جلسات استذكار"

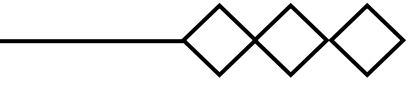

الفصل الخامس عشر

"الجلسة الأولى"

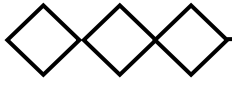

غنّى المطرب محمد عبد الوهاب، للشاعر أحمد شوقي، أغنيته "يا جارة الوادي"، والتي يقول فيها:

يا جارة الوادي طربت وعادني
ما يشبه الأحلام من ذكراكِ
مثّلتُ في الذكرى هواكِ وفي الكرى
والذكريات صدى السنين الحاكي

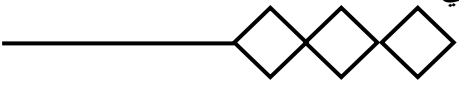

وقد كان لها وقع كبير في ذائقة "دنيا" منذ أن رحل توأمها إلى العالم الآخر، السكينة على روحه الطيبة، لأنَّها تحيي مشاعرها في ذكراه، وذكريات والدها، وجدّتها العمياء، وجدّها الذي لم تره خارج سرير نومه إلّا عندما أخبرها أخوها بما وصلت به الحال إلى أن ينتقل إلى العالم الآخر الذي لا يعلموا عنه شيئاً.

في هذا العام تمر علينا ذكرى حوالي ١٥٠ سنة على زواج أجدادي"أنعم" و"أنعام"، وقد ابتعد عنه بعض رجال الدين، والكثير من أبناء المجتمع، حيث أصبح متاحاً للجميع الزواج بين الأخوة. وبتاريخ العاشر من شهر كانون الأول من عام ٢١٥٠، جمعتني و"دنيا"، التي ناهز عمرها الستين عاماً، وزوجها "فلاح"، الذي هو أخي، قرب سرير مرضها الذي ماتت فيه، جلسة في غرفتها التي امتلأت جدرانها الثلاثة بصور أبنائها

الذين توزعوا في مشارق الأرض ومغاربها ببيتهم ببغداد، إنَّها جلسة إحياء الذكريات للأيّام الخوالي.

أنا العارف الوحيد بسر زواج جدّها، وشقيقته، جدّتها، وكان الحديث عن الأشقاء "أنعم" و"أنعام" الذي دار بيننا نحن الأربعة، هي وزوجها، وأنا وزوجتي، منصباً عليهما وعلى ذكرهما. فأخبرتني، وكأنها تخبرني الآن، نقلاً عن جدّتها التي لا تمت بصلة نسب إلى تلك العائلة، والحاسوب الذي على واجهة المنضدة التي أمامنا، يحوّل صوتها إلى حروف وكلمات وجمل ومقاطع، تُقرأ على شاشته السطحية.

أعرف أنّها ستحكي لنا حكاية أجدادها من الجدّ المؤسس إلى أبيها، وهي فترة تمتد لما يقرُب من قرنين من الزمان الذي مضى وولى، وقد أفل نجمه واحترق، إلّا أن ذكرى تلك الأيّام، ومما سمعته من جدّتها، معلقة بذاكرتها النشطة، والقوية.

وضعت "فلاش" في الفتحة المخصصة له على المنضدة لأسجّل ما تقوله، لكونها قد أخبرتنا كذلك بقرب موتها، ولأنني أكتب رواية عن حب "أنعم" و"أنعام" في ذلك الوقت حرصت على أن أسجل كل حرف تنطق به، وكل شاردة وواردة، وحتماً إنَّها ترى ما تحكيه مجسداً أمام ناظريها، وحيواته تتحرك، وأحداثه تقع، وحوادثه تحدث، وأفعاله تُفعل، وممارساته تُمارس.

كان الليل قد هبط على المدينة من كل جانب، والساعة تشير إلى الثامنة، و"دنيا" ممدّدة على سريرها الخشبي المفروش بعناية باذخة. وأنا وزوجتي "سعاد"، وزوج "دنيا"، "فلاح"، نجلس سويًا على كراسي منفردة نحيط بالسرير. "فلاح" قرب رأسها، وأنا قريب منه، ثم زوجتي.

قالت "دنيا" بصوت شبه هامس بعد أن رجوتها أن تحكي بعض ذكرياتها عمّا سمعته من أجدادها عن زواج "أنعم" و "أنعام":

- إنَّ الذكريات هي الجحيم، لا لأن لها علاقة بأحبتنا، وإنَّما لأنَّها هي أفراحنا، وأتراحنا، هي ألمنا، وحزننا، هي ضحكنا ومسراتنا، إنَّها فينا، هي ذاكرتنا.

صمتت قليلاً لتجر نفساً عميقاً، ثم تابعت القول:

- إنَّ ما سمعته من جدّتي وهي تروي لنا حكاية جدّنا "أنعم" وجدّتنا "أنعام"، وحبهما الذي لا يوصف، وهم أشقاء. وما فهمته كذلك من والدنا الذي قرأ الكتب التي في كيس الخيش، والذي سقط عند هدم أحد جدران الدّار، كلها، وشاهد فيلم "الطريق إلى سالونا" عند صاحب محل بيع وتصليح الحاسوب، ورفض أن نراه أنا وشقيقي "رياض"، السكينة على روحه الطيبة، لأننا كنا صغاراً، إلّا إنَّنا رأيّناه على شاشة الحاسوب، والتي هي باب ثلاجة المطبخ في البيت، كل هذا سأخبركم به.

سألتها وأنا أحثها على الحكي على الرغم من وضعها الصحي الحرج، أن تحكي، فقالت:

- أنا وأخي التوأم، السكينة لروحه الطيبة، لا نفهم شيئاً عن وجود تلك الكتب، والسجل، و"السي دي" المخزّن فيه الفيلم في مكان واحد.

ثم سارعت في القول بعد أن سعلت بقوة عدة مرات خلت أنها السعلة الأخيرة لها في دنيانا هذه:

- حتى أبي لم يفهم ذلك أولاً، ولولا جدّتنا العمياء، بصوتها المبحوح من أثر سرطان الحنجرة، لَمَا عرفنا أنا وأخي "رياض" أبو حديبة، السكينة لروحه الطيّبة، السر وراء وضعهم في الكيس وراء جدار مبنيّ، ولمّا عرف والدنا منّا ذلك بعد أن أخبرناه.

- كيف ذلك؟ سألتها مستفسراً.

قالت، وقد أشارت لحمولة كيس الخيش الذي جاء به زوجها، بيد نحيلة من شدة المرض والشيخوخة:

- هذه الكتب تروي لنا زواج الأخت من أخيها، أو زواج الشقيق من شقيقته، أليس كذلك؟

أجابها زوجها على الفور وهو يجلس في مكانه:

- نعم. لقد قالت الكتب كل شيء.

وأشارت إلى "السي دي" الذي بيد زوجها:

- وهذا الفيلم يحكي عن الممارسة الجنسية بين الشقيق وشقيقته، أو الذي تصورها "أنعم" إنَّها شقيقته في الفيلم، أليس كذلك؟

رد زوجها قائلاً:

- وهذا صحيح أيّضاً.

- هذه أدلة أثبات لـ "أنعم" و"أنعام" على ما فعلوه.

سعلت بشدة حتى إن بعض الرذاذ قد منعت انتشاره بمنديل الكلينيكس. وتابعت القول بنفس واهنة:

- أيّ، كل ما قاموا به قد مُورس منذ أبينا آدم وأمنا حواء، وإلى الآن.

قلت لها وأنا أقرب فمي من مسامعها:

- إذا افترضنا أن حكاية أبناء آدم وحواء كما وردت في قصص الأنبياء صحيحة، ونحن نعرف أنَّها من الإسرائيليات، وكذلك حكاية لقمان وشقيقته صحيحة، فكيف نصدق حكايات ألف ليلة وليلة، وقصة الفيلم كذلك؟

قالت وهي تبتسم ابتسامة صغيرة حاولت وضعها على شفتيها الذابلتين وهي تنظر إلى سقف الغرفة:

- أنا أعدّ جميع هذه الحكايات غير صحيحة، وهي من المرويات الشعبية. المأخوذة من الأساطير والخرافات التي نقلها الفكر الديني في كل الأديان الوضعية، وكذلك فيما تسمى ديانات ابراهيمية. وقد دونت في الكتب على أنَّها حقيقة واقعة، وثابتة، فصدّقها الناس.

وتابعت بحرقة الموجوع:

إنَّها أكبر خطيئة بحق عقولنا عندما نصدق بها بلا دليل يثبت وقوعها.

قلت لها وأنا أقترب منها:

- إذا كان ما قلتيه عين الصواب، فلماذا صدّق بها"أنعام" الرجل المتعلم القادم من لندن، وشقيقته؟

ردت قائلة:

- لأنَّ المجتمع في ذلك الوقت، وفي كل وقت، كان يصدّق هذه الحكايات، ويقدس بعضها، مثل حكاية أبناء آدم، وحكاية لقمان وشقيقته، فاستند لها "أنعم" و"أنعام" كحجة لهما أمام والديهما، وبعض الأهل والأقارب والمعارف، مع العلم أن لا مقدس في الكون سوى الإنسان كذات وليس كموضوع، لأن الإنسان يخطئ دائماً في أفعاله وممارساته وسلوكه، إلّا إنّه يبقى مقدساً كذات نظيفة من كل شيء.

سألتها بعد أن شعرت بتعبها الزائد، وبعد أن أشار زوجها لي دلالة على أنهاء الحديث:

- أمام من يريد "أنعم" و"أنعام" إثبات هذه العلاقة بين الأشقاء؟

كانت "دنيا" قد أغمضت عينيها، فأشار لي زوجها بأن أقوم وأغادر، وعندما حاولت ذلك أمسكتني بيدها الحارة من السخونة التي باغتت جسدها النحيل، وردّت قائلة:

- أمام والديهما المعترضين على هذا الزواج أولاً.

سألتها:

- وهل هذا يكفي؟

قالت بصوت واهن:

- هكذا رأيّي.

كانت تباشير النهار لليوم الثاني قد دخلت متلصصة من خلف ستائر النافذة، إلّا إنَّنا لم ننتبه لها بسبب الإضاءة الموجودة في الغرفة، عندها قمت من على الكرسي وأشّرت إلى زوجتي أن

تقوم هي الأخرى، وقد مددت يدي إلى النافذة لأنبههم إلى طلوع الفجر بعد أن رفع مؤذن الجامع القريب من بيتهم صوته.

***

الفصل السادس عشر

"الجلسة الثانية"

في يوم من أيّام شهر كانون الأول من عام ٢١٥٠، اجتمعنا مرة ثانية أنا "صلاح" وزوجتي، وأخي "فلاح"، قرب سرير مرض "دنيا" زوجته، الذي يحتل أحد أركان الغرفة قرب النافذة المطلة على الحديقة الجانبية للدّار، في جلسة عائلية، وكانت أحاديثنا فيها بعض من ذكرياتنا، وذكريات الأهل والأجداد الأوائل، ومرّ الحديث على "أنعم" و"أنعام"، بل أنا الذي أثرت الموضوع عن ذلك، ودون أن تشعر "دنيا"، المرأة المريضة، بأنّني أكتب رواية عن أجدادها الأوائل، سألتها عن فيلم "الطريق إلى سالونا "، هل شاهدته هي؟ وما هي قصته؟

قالت بعد أن مسح زوجها لها نظارتها الطبية بقطعة قماش خاصة:

- لصديقي وشقيقي وتوأمي "رياض" السكينة والسلام، لقد شاهدناه سوية على الحاسوب الذي شاشته باب ثلاجة المطبخ.

كانت بعض قطرات من الدمع قد سالت على جنبيّ وجهها الأصفر من الألم والوجع، إذ كانت كلما شحبت اللوعة لفقد أخيها جددتها ثانية في روحها الإنسانية:

- كان "رياض" أخي التوأم، السكينة لروحه الطيبة، عنده حدبة في عموده الفقري، لقد أتعبته تلك الحدبة كثيراً، وكانت من تبعات اللعنة التي حلّت بسلالة أجدادنا "أنعم" و"أنعام"، كما يقول الناس في ذلك الوقت، فقد كان ابنهم الوحيد أعور العين، وابن هذا الأعور الوحيد أيضاً أعرج الساق وأخرس، ماعدا أبي الذي تخلص من هذه اللعنة، وخرج سليماً منها، لأن عمتي التي هي أكبر من أبي، حملت هذه اللعنة لوحدها، فكانت مكفوفة

العينين منذ الولادة، وقد ماتت وهي صغيرة، لا أعرف هل أصدّق هذه اللعنة أم أكذبها؟

أعرف شاباً أخرس، وابن خاله، وفي الوقت نفسه ابن عمته، كان طفلاً منغولياً، فهل هناك لعنة أصابتهم، ها؟ وهناك أمثلة كثيرة.

إن ما يسمى لعنة هي مجرد كذبة وضعها الكُسالى من الناس ولم يبحثوا في الجينات التي تشكل هذه العاهات، وصدقوها.

بعد فترة صمت خلت أنها انتقلت إلى العالم الآخر، تابعت قولها بصوت واهن، وبقلب ضعيف:

ـ كانت اللعنة تنتقل من الأب إلى ابنه أو ابنته مرة تصيب المواليد الذكور، ومرة أخرى تصيب المواليد الإناث، فهي لعنة عادلة عند التوزيع، وتبسمت بصعوبة.

سألتها:

ـ وما هي قصة الفيلم؟

أجابت بصوت واهن:

ـ الفيلم لم يقل إن الأشقاء قد تزوج أحدهم من الآخر. بل هو يروي ان الأم المفجوعة بغياب ابنها، قد تخيّلت ان الشاب الذي دخل البار الذي تملكه، هو ابنها. فتقنعه أن يعيش بينهم في البيت، فيقبل. وتقع بينه وبين ابنة المرأة علاقة حب، تكللت بممارسة الجنس بينهما.

لقد فهم "أنعم" و"أنعام" هذه العلاقة على أنها علاقة تمت بين الأخوة الأشقاء، وليس بين الشاب الشبيه بالأخ، وشقيقة ذلك الأخ.

قلت بشيء من نقد المجتمع الذي كانا يعيشان فيه:

ـ هذه صورة من صور انحلال المجتمع العراقي؟

قاطعتني قائلة وكأنها تدافع عن أجدادها:

ـ المجتمع انحلّ بعد عام ٢٠٠٣. أيّ بعد، وأثناء الغزو الأمريكي، وسقوط بغداد، وقتها ضاع العراق بين دول الجوار،

لقد أصبح العراق نكتة سمجة لا يلتفت لها في أيّ مكان في أعين تلك الدول.

سارع "فلاح" إلى القول:

- كل شيء له مقدمات، ومقدمات هذا الشيء كانت قبل عام ٢٠٠٣ أثناء الحصار الذي قرأنا عنه، الحصار الأمريكي، حتى وصل الحال بالمجتمع أن يكون جاهلاً بحق، أليس كذلك؟

- ربما. قلت ذلك.

أمّنت "دنيا" على قول زوجها في أنّ كل شيء له مقدمات، وتابعت تقول بصوت واهن، أتعبه المرض:

- المهم، إن المجتمع بدأ ينهار، كانهيار الدولة، وكل المؤسسات الحكومية في ذلك الوقت، وحل الجيش، وفي ذلك شرع "أنعم" و"أنعام" بالإعلان عن حبهما.

سألتها:

- ألم يكن الحب بينهما قد بدأ في لندن؟

أجابت "دنيا" بصوت واهن، بعد موجة من السعال الحاد:

- نعم. ولولا سقوط بغداد وانهيارها، وانحلال القليل من الناس الذين برزوا في المجتمع العراقي، وليس كله، بسرعة كبيرة، لبقي الحب سراً لا يعلم به أحد.

سألتها:

- هل تعتقدين أن نسبة الانهيار والانحلال كبيرة جداً؟

قالت بذات الصوت الواهن:

- قد طغى ذلك على سطح المجتمع، لكني لا أرى النسبة كبيرة.

قال "فلاح" مؤيداً:

- ربما كانت نسبة الذين في الدولة والحكومة أكثر بكثير، وقد جاؤوا من خارج البلد. إنَّهم "لملوم"[١]، بل، إنّي أجزم أن أعضاء الحكومة كلهم يشملهم التوصيف ذاك، لقد تفشى الفساد

(١) لملوم: تجميع من عدة أماكن.

بينهم حتى سرى ذلك إلى الموظف بحكم كونه قد تعيّن في وظيفته بالمحسوبية، وبدفع الرشوة، بل إن الكثير من الناس يستحقون الوظيفة، وكانوا أفضل منه.

قالت "دنيا" وهي تمسح فمها بقطعة كلينيكس:

- الجهل في المجتمع كان بيئة مناسبة للكثير من رجال الدين الذين ظهروا للعلن، وكان فهمهم للدين خاطئاً، إنَّهم لم يسلموا من ذلك الانهيار الكبير، وتفشي الفساد، ووصل الحال بأحد المعممين أن يقول من على المنبر: طالما هناك لطم ومشي في الأربعين، فليس لكم حاجة لانتقاد الحكومة، وكأن واجب الحكومة هو هذا، وليست مسؤولة عن الشعب كافة، وكذلك قول آخر:"إذا ماكو شغل فاقض يومك بالصلاة والصوم". هكذا كانوا يقودون المجتمع إلى أن وصل إلى ما هو عليه من جهل مركب، وفساد، فانحل وكمل سقوطه المدوّي.

تساءلت بحرقة:

- ما شأن كل هذا بحب "أنعام" و"أنعم"؟

ابتسمت "دنيا" وقالت:

- كلنا في الهوى سوا.

ضحكنا. وكانت "دنيا" قد ابتسمت بشفتين ساخنتين، كجمر الكانون، ويابستين.

***

الفصل السابع عشر

"الجلسة الثالثة"

يقول المثل الدارج (عند البطون تعمى العيون)[1] ولم تعم عيوننا في تلك الليلة، فعندما أكملنا عشاءنا، حمل "فلاح" صحن الشوربة وذهب إلى غرفة زوجته "دنيا" المريضة، ولحقنا به أنا وزوجتي.

كان يقنعها بأنْ تشرب قليلاً من الشوربة، لأن هذا وقت أخذ الدواء، ويجب عليها أكل بعض الشيء.

سارعت زوجتي وأخذت منه ماعون الشوربة، وجلست بالقرب من المريضة، وحاولت أن تطعمها شيئا مما فيه، إلّا أن "دنيا" رفضت ذلك بحجة أنَّها لا تشتهي الأكل الآن.

وبصوت واهن أكله المرض، توجهت "دنيا" بكلامها لي، وكأنَّها اكتشفت شيئاً مهماً، قالت:

- في يوم أمس نسينا شيئاً لم نذكره في حديثنا؟

سارعت وسألتها:

- ما هذا الشيء الذي نسيناه؟

وسألها زوجها عن ذلك الشيء الذي لم نطرحه للمناقشة.

قالت بعد أن خرجت من نوبة سعال حادة باغتتها فجأة وهي تريد الحديث عن ذلك الشيء:

- الديمقراطية!!

كانت الكلمة قد قالتها بصوت متقطع من شدة السعال.

سألها "فلاح":

---

(١) عند البطون تعمى العيون: مثل شعبي. أيّ عند حضور الأكل لا يرى الشخص الذي يجلس بقربه، يصيبه النسيان.

- وماذا بها عزيزتي؟ وتابع القول:

- الديمقراطية شيء إنساني. وهو أمر يصيب التنظيم داخل الحياة.

قالت بكلمات متقطعة:

- نعم إذا كانت هذه الديمقراطية صحيحة التطبيق لنتج مجتمعاً صحيحاً ومُعافى، لا مجتمع فيه كل أمراض المجتمع الشرقي، العربي، الصحراوي.

وتابعت قولها بعد أن خلع زوجها نظارتها الطبية، ونفخ على زجاجها، ومسحها بقطعة قماش صغيرة معدة لذلك:

- بعد أن قرأت الكثير عن المجتمع العراقي في ذلك الوقت توصلت إلى نتيجة مفادها: "أن السبب وراء هذا الانحلال والسقوط هو أن الغزاة الأمريكان قد جلبوا إلى العراق بعد احتلالهم لبغداد، الحرية، فكثرت الصحف والمجلات، وقلت (كمية التموين)(١)، والأدوية، وخرب التعليم، والصحة، وغير ذلك الذي ينفع الناس. وجلبوا معهم ما تسمى بـ "الديمقراطية" التي فرّخت الكثير من المشاكل الطائفية، وانقسام الولاء المذهبي والديني، وولاء السياسيين إلى دول الخارج، علماً بأنَّهم كانوا مفلسين في مواطن الشتات التي كانوا فيها لاجئين، يعيشون على المساعدات التي تقدمها لهم تلك الدولة، فجاؤوا لطلب الثأر، ولإحياء الطائفية، والقومية الشوفينية، وللسرقة، والنهب. إنَّهم كانوا لملومًا غير متجانس.

سألها "فلاح":

- وماذا في ذلك؟

ردت قائلة بنفس صوتها الواهن:

(١) كمية التموين: وهي كميات المواد الغذائية التي توزعها الدولة مقابل ثمن زهيد على المواطنين. كانت قبل الاحتلال توزع شهرياً أكثر من ٢١ مادة، وبعد الاحتلال أصبحت أربع مواد وتزع بغير أوقاتها.

- فيه الكثير. إنَّها ديمقراطية مشوّهة، ديمقراطية (قل رأيّك وامض بعيداً)، وهي ديمقراطية ناقصة.

شاركتنا زوجتي التي لم تنبس ببنت شفة طيلة جلوسنا، قائلة:

- وماذا بعد؟

قالت "دنيا" بذات الصوت الواهن:

- فيها الكثير من مساوئ ديمقراطيات العالم، إنَّ القتل أصبح على الهوية، وأيّضا رفع شعار مخفي هو: اقتل وامض لا أحد يلتفت لك. اقتل، اسرق، انهب، أفسد، الفساد في الأخلاق، والفساد في المجتمع، والفساد في الحكومة، لا أحد يلتفت لك، وهذه كلها مذكورة في بروتوكولات صهيون لو تلاحظون.

سألتها:

- هل تقصدين أصبح المجتمع العراقي مجتمعاً صهيوني الأخلاق؟

ردت بصوت واهن:

الصهيونية ليست بعيدة عن كل ذلك، وهي قريبة منهم، إنَّها في الشمال، أقصد أنَّهم طبقوا ما في بروتوكولات صهيون على المجتمع العراقي.

هكذا تحلّل، وسقط، نصف هذا المجتمع الجاهل بسبب الغزو والاحتلال، ومن ضمن هذا الفساد فساد أجدادي عند بعض الناس. ومن المضحك أنَّه عند غيرهم من الناس لا يسمى فساداً.

سعلت وهي تتحدث:

إن المجتمع، أقصد بعض مكونات هذا المجتمع، نبذ وبسرعة عجيبة كل الحقائق التي كان يسير عليها، وهو يفاخر، ويتغنى بها.

توقفت قليلاً عن متابعة الحديث لتقذف البلغم الذي تجمع في فمها في قطعة الكلينيكس التي أعطاها لها زوجها، قالت:

- خذ شعار "هيهات منّة الذلة" الذي انتشر وقتذاك كنار في الهشيم، والذين يرفعونه كانوا يعيشون أذلاء خانعين لأسيادهم

الذين يهتفون أمامهم في حر الصيف، أو برد الشتاء، يهتفون ويمضون إلى الذلة والهوان، ولا أحد يسأل عنهم بعد ذلك.

وكذلك يرفعون قول الإمام الحسين كشعار: "لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل ولا أقر لكم إقرار العبيد" وكل من يرفعه يذهب إلى صندوق الانتخابات ويعيد انتخاب الوجوه نفسها وكأن الانتخاب عبارة عن معمل لتدوير النفايات.

هكذا كان الأمر يسير تحت مظلة الدين والتدين الزائف.

قلت:

- لقد قرأت عن رجال تلك الفترة، كانوا أصحاب دين.

ردت قائلة وهي باسمة:

- ومن يعرف بما تحوي القلوب؟ هل شقوا قلوبهم ليعرفوا أنَّهم أصحاب دين؟ أم أن سيماهم في وجوههم من أثر السجود؟ كانوا يكوون جباههم بالباذنجان لتبدوا لغيرهم أنَّها من أثر السجود.

تابعت قولها بصوت واهن:

- إنَّ الديمقراطية تلك قد جلبت الويلات للمجتمع العراقي في تلك الفترة، فتحلّل وسقط، وبعد أكثر من خمسين عاماً بدأ ينهض، ويسترد أنفاسه ليعود مجتمعاً صحيحاً قابلاً للعيش في هذا القرن الآلي، والتكنولوجي، المجتمع العالمي، والعلمي.

بهذه الكلمات ختمت "دنيا" حديثها في الجلسة، واستأذنت منّا، لأنَّها تعبت كثيراً، وتريد أن تنام لترتاح.

نهض ثلاثتنا، وبهدوء خرجنا من غرفتها التي أطفأنا فيها الإضاءة، وأغلقنا بابها بهدوء.

كانت هناك مواضيع تريد أن تتحدث عنها إلّا أن تعبها قطع الاستمرار في طرحها ومناقشتها، فقلت مع نفسي: لنفتح تلك المواضيع في وقت آخر. إلّا أنَّ زوجها باغتني بسؤاله عن صحتها، وهل ستعيش إلى يوم غد؟

أجبته مؤكداً:

- رغم هذا السعال الحاد والشديد فأنا أراها قوية، وخاصة ذاكرتها النشيطة، والزمن عندها يجري كالماء الزلال لا يتوقف كما توقف عند البعض.

ودّعنا أخي قرب باب الدار أنا وزوجتي، وخرجنا.

كان الليل قد انتصف، والسماء تشع وتلمع فيها النجوم المتلألئة من بعيد، ليست كرجوم للشياطين، لأن لا شياطين موجودة، سوى شياطين النفس الأمارة بالسوء، هذه النجوم هي زينة للسماء التي تظلل الأرض، ونسيم خفيف يهب في الشوارع، والأماكن المفتوحة التي امتلأت بالناس وهم يسهرون خارج بيوتهم.

***

الفصل الثامن عشر

"الجلسة الرابعة"

كانت "دنيا" وزوجها "فلاح" قد أقاموا حفلاً بمناسبة عيد ميلادها الستين قبل أيّام مضت، فرحت، ضحكت، رقصت لوحدها وهي جالسة على الكرسي المتحرك، ومع زوجها الذي قابلها جالساً على كرسي خشبي، رقصوا مشرعي اليدين، ومتماسكين، كانت بارعة في الرقص وقد أثارت إعجاب الحضور برقصها، رغم جلوسها على الكرسي المتحرك، إلّا أنَّ ذكرى توأمها ما زالت طرية في نفسها، وروحها، إلى الآن لم تيبس، ولا ذبلت، ولا أصابها الجفاف، تلك الذكرى الحية النابضة بحنين الرحم الذي كانا فيه، وما مرضها هذا الذي أقعدها على الكرسي، إلّا حسرة على موته، ورحيله بعيداً عنها، لقد فرق الموت بينهما.

لقد بكته كثيراً وهي تعلم أنَّ البكاء لا يعيده إلى الحياة، إلّا أنَّها عاطفة الأخوة، والعيش سوية أكثر من أربعين عاماً مشتركين في كل شيء حتى في التفكير، إنَّه توأمها، وتوأم روحها، التي سينتهي مفعولها في يوم ما.

كان "رياض" كما أخبرت زوجها وأخبرني هو، قطعة طرية من كيانها الذي ينبض بالحياة. كان بحدبته علامة على اللعنة التي أصابتهم من الأجداد، كما ادّعى البعض من الأهل والأقارب، من زواج أجدادهم الأولين.

شعرت في البداية بنحول عام في جسدها الذي ما يزال طرياً في سن الأربعين بعد موت توأم روحها. تطور هذا النحول إلى ما يشبه الصيام عن الأكل، ومن ثم الاستلقاء في السرير، حتى وصلت إلى حالة لا تقوى سيقانها على حمل جسدها الضامر الضعيف، والصغير، فأخذت تتنقل، وما أقل تنقلاتها، على

الكرسي المتحرك بين الصالة وغرفة نومها، حتى الأكل، وما أقله، والدواء، أخذت تتناولهما في غرفة نومها، أو في الصالة، لا في المطبخ كالعادة.

كان الجو بارداً، والليل بدأ ينسج خيوطه حولنا، وغرفة نومها مضيئة بفعل المصباح الكبير الذي علقه زوجها قبل عيد ميلادها بأيّام.

وهي تشرب كأس عصير البرتقال من يد زوجتي، بعد أن أجلستها على السرير، قالت بصوت واهن مليء بالمرض:

ـ لقد تعبت كثيراً في اليومين السابقين. لم أعد أحتمل الألم والوجع.

كان صوتها واهناً وضعيفاً، وكانت بالكاد تتكلم معي، فقد أخذتها نوبة من السعال الشديد، وهي تعاند وبإصرار الاستسلام للمرض، ومن ثم الموت.

كانت تستذكر أبناءها، الذين هم ليسوا من نسل تلك العائلة التي قال عنها الناس:"إنَّها مصابة باللعنة، اللعنة التي أصابت أبناءها المنتشرين في شرق العالم وغربه، قالت لزوجها الذي يقف بالقرب من سريرها:

ـ فلاح، أرجو أن تتصل بأبنائنا وتخبرهم أنَّني أريد أن أراهم، أشعر بأنّ أيّامي تذوب بين أصابعي في هذه الدنيا، أريد أن يكونوا أمام عيني.

سألها زوجها "فلاح" إن كانت ترغب بالبقاء لوحدها أم لا؟ فأجابته إنَّها تريد أن تتحدث كثيراً، لا تريد أن تكون صامتة، كأبله، وساكتة كأخرس في الزفة، وإلّا فهي ستموت حتماً.

انفرجت شفتاها قليلاً دلالة الابتسام، على الرغم من مجهودها الذي بذلته بيننا لكي ترينا هذه الابتسامة على وجهها، فقد أصبح وجهها مثل الليمونة، أصفر فاقع لا يسر الناظرين.

ثم أشارت بيدها النحيلة إلى صورة معلقة على جدار الغرفة تجمعهم سوياً، هي وزوجها، وأبناءها الأربعة مع زوجاتهم،

وأحفادها الثمانية. أربعة رجال يشبهون خالهم "رياض" إلا إنهم لا حدبة لهم، إذ لم تصبهم اللعنة، همست:

- الحمد والشكر لمن نجّاهم من تلك اللعنة التي لا أومِن بها.

كان زوجها، ومن في الغرفة، قد سمع ما همست به، فأمّنوا على ما قالته.

نهض زوجها من مكانه، ومضى إلى الجدار الذي علقت عليه الصورة، ونزعها من مسمارها، وأتى بها إليها.

قالت وهي تنظر إلى الصورة التي حملها زوجها ووضعها بالقرب من وجهها لتراها عن قرب:

- إنَّهم أحبابي الصغار الكبار، رجال وهم يحملون ملامح خالهم، توأمي الروحي.

ثم وجهت كلامها الواهن إلى زوجها:

- انظر يا "فلاح" ما أجملهم؟

لم يقل "فلاح" شيئاً، سحب الصورة وأعادها إلى مكانها على الجدار، ثم عاد إلى مكانه.

قال "صلاح" وهو يدفعها إلى الكلام:

- تحدثي، قولي أيّ شيء يخطر ببالك، أنا أحسدك على تلك الذاكرة. قال ذلك وضحك.

قالت بصوت واهن:

- أتعرفون؟ إننا نعيش عفونة ما ورثناه من أجدادنا السابقين؟ كان كل ما أورثوه لنا هو عبارة عن عفن غير صالح للاستخدام سوى أملاكهم، وأموالهم.

رد عليها "فلاح" قائلاً:

- كانت اللعنة قد أصابتكم منذ تزوج الأشقاء. إنَّها لعنة الآباء التي لم تتخلصوا منها.

قاطعته بنبرة صوت جمعت كل قواها لتقوله دون أن يطرف لها رمش:

- لا تقل هكذا، لا لعنة، ولا هم يحزنون، هذه كذبة لفقها بعض الأهل والأقارب، لا توجد لعنة أبداً.

كانت حادة في كلامها على العكس من سلوكها العام، وكانت ملهمة باقتدار لكل من حولها، بدت فيما تؤمن به، امرأة لا تقبل من أحد أن يؤمن باللعنة، اللعنة غير موجودة.

كنت أنظر إليها وإلى زوجها الذي يحبها. كان هو أصغر منها بسنتين، وكانت هي تمتلك تجارب واسعة بالحياة تعلمتها من جدّتها العمياء ذات الصوت المبحوح.

كانت إلى هذا الوقت، ورغم شيخوختها المريضة، ذاكرتها نشطة في حكي ما جرى في الماضي.

في ذلك اليوم سألتها عمّا إذا كانت الديمقراطية قد كانت وبالاً على العراقيين؟

قالت بصوت واهن حاولت أن يكون واضحاً لي ولزوجها، وزوجتي، نحن الثلاثة الذين نجلس قريباً من سريرها:

- أنت تعرف أن رسالتي للدكتوراة من لندن كانت بعنوان "التحولات الديمقراطية في العراق بعد عام ٢٠٠٣"، وقد ناقشني الأستاذة فيها، لأنني لم آتي بمثال واحد إيجابي عن تلك الديمقراطية.

قال زوجها "فلاح":

- نعرف ذلك عزيزتي، و"صلاح" يعرف به، و"إلهام" زوجته كذلك، لأننا حضرنا المناقشة، وقرأنا الرسالة قبل أن تناقش، أسأل عزيزتي: ما الذي ذكّرك بها الآن وقد جرت قبل ثلاثين عاماً؟

ردت:

- عزيزي ليست مناقشة الرسالة هي شاهدنا، ولكن ما قلته فيها هو عين الحقيقة.

أمسك يدها ووضعها على قلبه وكأنَّه يشعرها أنَّه ما زال يحبها. فبادرته قائلة:

- عزيزي، وهل تشك في حبي لك؟

أسرع للقول:

- لا، ولكن هذه الحركة مني قد جاءت عفو الخاطر، إنَّها غير متعمّدة بتاتاً، على الرغم من معرفتك بمدى حبي لك اليوم، وأمس وإلى الأبد.

قلت له مماحكاً:

- يريد أن يبين لك إن قلبه في الجهة اليسرى.

وضحكنا عالياً.

رد "فلاح" بنبرة قوية:

- أيّها الشيطان الخبيث.

وعاد الصمت مرة أخرى للغرفة التي غادرتها زوجتي "إلهام" لأمر ما.

كانت "دنيا" قد ركزت ناظريها في نقطة ما في سقف الغرفة، وكان زوجها يتابع ذلك حتى أغمضت عينيها، فأشار لي بيده بأنْ أخرج من الغرفة بهدوء كي لا نوقظها.

***

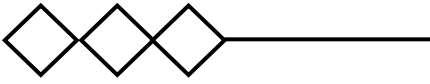

"الرحيل"

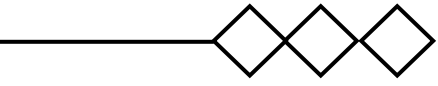

الفصل التاسع عشر

"رحيل آخر العنقود في هذه السلالة"

رحل جميع أفراد هذه العائلة قبلي ولم يبق سواي، بقيت وحدي أنا، أشعر بمرارة الموت في فمي، عيناي يجدح فيهما ضوء ساطع كالبرق، أرى الدخان يخرج من تحت الغطاء المزين بالورود الملونة الجميلة، تمتلئ الغرفة به، زوجي فقط يراقبني، إنَّها النهاية لي وبداية اللقاء مع أحبتي، "رياض" التوأم العذب لروحي وكياني.

في ذلك الوقت مطرت السماء، ورعدت، وبرقت، وعصفت، وفرقعت عالياً، وأضيئت السماء بخيوط لامعة من الذهب الخالص، فامتلأت الشوارع ببرك الماء الوامضة بوميض البرق الساطع.

بدأ الشلل يتحرك في جسمي المخدر من النوم في السرير، صعد من أخمص قدمي إلى أن وصل إلى صدري وهو في طريقه إلى رأسي.

رأيت زوجي المسكين لا يعرف ماذا يفعل، لم أرَ دمعة واحدة تنزل من عينيه، ولا صرخة، أعرف أنَّه متفاجئ الآن.

كل شيء من وراء الغطاء أراه يتحرك أمامي، حتى الكرسي الهزاز الذي أورثتني إيّاه جدتي العمياء والمبحوحة الصوت، وقد ورثته من أم زوجها "أنعام"، اهتزَّ من تحت زوجي الذي هدَّ جسمه عليه من كثرة التعب المتولد من الحزن المكتوم حيث لا دمعة ولا صرخة ولا أحد يواسيه بموتي.

لقد حدث كل شيء في صمت، لم أصرخ، ولم أخرج صوتاً كي أنبه زوجي بوصول الموت الذي قدم تجاهي، كل شيء حدث في صمت كصمت الجنود في الدقائق الأخيرة وهم يترقبون المعركة،

حتى زوجي لم يعرف بالموت، فقد تلبسني وأخذني معه إلى عالم ليس بعالمه، وإلى حياة ليست بمثل حياته، وإلى دنيا ليست كدنياه، إلّا أنَّه انتبه لما بعد الموت، فغطى رأسي بالغطاء المورد الجميل الذي وضعته عليّ عندما شعرت أنّني سأقابل الموت.

أنا "دنيا" المحرك الأساس لحكي جدّتي العمياء، انتهت بموتي العائلة الكبيرة التي أسسها جدي الأول في الدّار الكبيرة، وأنجبت أبناءً وبناتًا ملأوا العالم شرقه وغربه.

كل ابن من أبناء هذه العائلة كان يختار له زوجة من خارج بنات عماته أو خالاته، ومن خارج العشيرة حتى.

أول من بدأ بهذا التقليد هو جدّي الكبير والمؤسس لهذه العائلة، فقد تزوج من امرأة كردية.

أما جدّي الآخر، أقصد جدّ "أنعم" و"أنعام" فقد أحب فتاة غجرية كانت قد نزلت عائلتها لعدة أيّام قريباً من مزارع العائلة، رآها هذا الجدّ وأحبها و"نهبها"[1]، ومن ثم تزوجها، فأنجبت له والد "أنعم" و"أنعام"، وبنتًا.

لم تجد ملاذاً آمناً في بيت زوجها، فقد كانت نساء البيت يبادلنها البغضاء والكره كونها غجرية، ومنهوبة.

لاقت هذه الغجرية صعوبة كبيرة في قبول عائلته لها، لهذا أصبحت، كما تذكر جدّتي، مكروهة من نساء العائلة، وامرأة معقدة، ففرّت إلى مكان غير معروف، وربما التقت بعائلتها التي ارتحلت ولا نعرف شيئاً عنهم بعد ذلك.

وتزوج جدّي، أبو والدنا، من امرأة إيرانية في إحدى زياراته لإيران، كانت امرأة طويلة، وضخمة، وجميلة، كما وصفتها لنا

(١) نهبها: كان في السابق عندما يحب الرجل امرأة ويخطبها ولا يقبل أهلها فيقوم الرجل بالاتفاق مع المرأة بالهرب خارج منطقة سكناهم، بعدها يرسل الرجل مشايّة من الرجال ليتفاهموا مع أهل المرأة حتى يقبلوا. تبقى المرأة المنهوبة وصمة عار في جبين عائلة المرأة والمرأة نفسها.

جدّتي المبحوحة الصوت، وأنجبت والدنا وشقيقته التي ولدت عمياء وماتت وهي صغيرة.

أما والدي، فقد عاد إلى تقليد العائلة قبل عام ٢٠٠٣، وزواجهم من بنات أقاربهم، أو عشيرتهم.

لقد صُحح الخطأ الذي قام به أجدادي الأوائل، فيما كان عزرائيل ـ ملك الموت ـ لا يتجنبني لبعض الوقت لأحكي لزوجي وأخيه عن نساء عائلتنا الكثير، عن الابنة والحفيدة، والأجنبية[١]، فيما كانت دارنا هذه التي في بغداد تحيط بها الأمطار من كل جانب.

عزرائيل يحوم حولي، رأيته يصعد على صدري، تذكّرت الذين ذهبوا دون عودة وكأنني في حلم جميل.

بدأت أشعر بالرغبة في الحياة ليس خوفاً من الموت الذي لا يتوقف لحظة واحدة وإنما لأكمّل ما بدأته من الحديث عن عائلتي الكبيرة، ونقل أخبارهم، والذكريات التي لا تنطفئ لحظة واحدة. لقد أخبرت الجميع بالحقيقة التي بدت مرّة كالقهوة الصباحية، لقد حافظت عليها لكي أخبر بها الآخرين، وكانت هذه غايتي.

تساءلت بصوت مرتجف وأنا في فم الموت المشرع أمامي:

- هل ثمة شيء بعد الموت؟

أجبت على سؤالي بنفسي وبنفس نبرة الصوت:

- ربما.

عندها شعرت أنَّ عزرائيل هذا قد أدخل يده في فمي، كما تدخل نسمة الهواء تحت ملابسنا بلا حس ولا خبر، أضاء قبس من نور ساطع الفضاء الذي بين عينيّ، عندها سلّ من فمي روحي كما تُسل الشعرة من العجين.

(١) الأجنبية: تطلق هذه الصفة على المرأة الغريبة عن نسل العائلة.

أول ما وعيت في مكاني الجديد ومجريات أموره، هو أنَّه كان كثيفاً مثل زلال البيض، فهو مليء بالدهشة والألغاز وسوء الطالع الذي يعيشه الكثير من الموتى.

ومن سوء طالعي أن أبقى وحدي معزولة عن الآخرين، فنظرت بعمق داخل نفسي، وخارجها، وجدتها صادمة، مخيفة.

عندما تكون بمفردك معزولاً، مع ناس لهم حياتهم النابضة بالحركة يكون أمامك متسعاً من الوقت لتقول أيّ شيء، أيّ شيء يخطر على بالك الميت والنشط في الوقت نفسه، خاصة إذا كانت المخيلة الميتة والنشيطة تدعمها ذاكرة ميتة وثرية بالذكريات.

لم أوصي في أيّ مكان أدفن، لأنَّهم يعرفون ذلك، سوى أن يكون قبري ضمن صف جديد من القبور، ويكون أولادي وذريتهم معي، لأنّني أريد أن أفتتح زمناً جديداً لي ولذريتي بعيداً عن عائلة العراقي التي أُقبر في مقبرتهم.

كما أنّي لم أورث لأحد من أبنائي، وأحفادي، تلك اللعنة التي ورثها أخي وبعض أجدادي بعد عام ٢٠٠٣، لأنني أعرف جيداً أيّن سيدفنوني، حتماً سيدفنوني في مقبرة العائلة التي أسسها جدّي الأول، مؤسس العائلة، خارج المدينة، وسماها "مقبرة عائلة العراقي"، وهو لقب عائلتنا منذ القدم، بالقرب من إحدى مزارعنا الكبيرة، وقد دفن فيها كل موتى العائلة المباركين والملعونين، كما يحلو لبعض المتقوّلين أن يتقوّلوا.

لقد أصبح حبل الحياة أوهن بكثير من حبل الموت.

***

الفصل العشرون

عندما يكون الصباح هكذا بشمسه الدافئة، ونوره الذي يسطع على كل الموجودات، تكون الرياضة الصباحية ضرورية للحياة، وهكذا كانت لي.

عدت من رياضتي الصباحية تلك، ومِلْتُ في طريقي إلى محل بيع الزهور، وابتعت باقة ورد زهرية اللون، وضعتها في المزهرية التي فوق "الكومدينو" الخشبي الذي قرب رأس "دنيا" فشكرتني، ومسكت يدي وقبلتها ممتنة، فيما كانت "طيور الحب"[1] الملونة تزقزق وهي في قفصها المركون في الباحة الخلفية لبيتنا قريباً من نافذة الغرفة المغطاة بالستائر الخفيفة التي يدخل عبرها نور الشمس الصباحي.

كانت غرفة منام "دنيا"، وسريرها الوثير، والكرسي الهزاز الذي جاءت به "أنعام" من لندن، والذي توارثته منها بعد موتها، ما زال كما هو، مطلي بلون صاجي، مركون في زاوية من الغرفة أيضاً، ولم يهتز ولا مرة واحدة منذ موت الجدّة إلى اليوم.

***

الآن، وفي هذا الليل، نادت عليّ وطلبت مني أن أستلقي بالقرب منها على السرير، إنَّها تريد أن تكون معي عندما يأتيها عزرائيل، فعلت ذلك على مضضٍ لقولها ذاك، بعدها طلبت مني أن أغمض عينيّ، فامتثلت لما تريد، وبعد دقائق فتحت عينيّ، نظرت لوجهها بعد أن أزحت الغطاء عنها، فألفيته باسماً، إلّا أنّي صُعقت لمرآها، اجتاحتني نوبة هيستيرية.

(١) طيور الحب: طيور الكناري، وهي طيور ملونة تستخدم للزينة، وتحجز داخل أقفاص.

كان عليه أن ينتبه لزوجته التي قبّلت يده صباحاً. كانت مستلقية على السرير، بثوبها "الشيفون"* المورد، والمزخرف، بأنواع الزخارف الملونة، والذي لبسته لأول مرة منذ أن قدّمته لها هدية زوجة أخي "صلاح"، بمناسبة ذكرى عيد ميلادها، ووجهها قد شحب، وامتقع جبينها، وغادرته الدماء التي كانت تسري فيه، كانت عيناها ذابلتين وهادئتين، إلّا أن وجهها ما زال نضراً، باسماً، كما رآها أول مرة في حفل الكلية قبل أكثر من ثلاثين عاماً، وهو ينظر إلى الأمام، اقترب نحو سريرها، مدّ يديه تحت كتفيها محاولاً إنهاضها، شعر ببرودة كتفيها تسري إليه عبر ملابسها، تحركت أصابع يده بهدوء إلى جبينها فألفاه بارداً كالثلج، شفتاها بنفسجيتان من قهر الموت، لقد أدركها الموت. وضع أذنه على صدرها فوجده لا حسّ ولا خبر، تيقّن أن روحها النقية قد فاضت، لقد مضت إلى العالم الآخر دون أن ترى أبناءها.

إنه لا يخاف الموت، ولكنه لا يريد البقاء لوحده معه، ملاقياً بوجهه هذا الموت، أو على الأقل ليبحث عمن يواسيه بفقد زوجته الحبيبة هذه اللحظة.

لقد ذهب قبل دقائق أخوه وزوجته، إنَّه وحيد مع نفسه الآن بين هذه الجدران المليئة بصور الأبناء والأحفاد، والموت، فقدَ كل ما يحتفظ به من قوة، تجمّد الدمع في عينيه ولم تنزل قطرة واحدة، صوته لم يسعفه بصرخة واحدة حتى، وقد فقد السيطرة على أقدامه التي أصبحت مثل الخيوط وهناً، لقد تهدم كيانه كلياً.

كانت الوحدة قد ثقلت عليه، وحاول أن يبكي زوجته التي قضى معها أكثر من ثلاثين عاماً، ليقلل من وطء الموت عليه، إلّا أن عينيه خذلتاه، كانت كالصخر وأشد منه صلابة.

هكذا طويت صفحة "أنعم" و"أنعام" وأبنائهما وأحفادهما من تاريخ المدينة التي جاؤوا منها، طويت تلك الصفحة مع آخر من تبقى من سلالة "أنعم" وشقيقته "أنعام"، التي لم تصدق بمن

قال: إنَّها من أثر لعنة زواج الأشقاء التي أصابت أحفاد "أنعم" وشقيقته، كانت اللعنة متساوية بين الذكور وبين الإناث، إذ إنَّها كانت تظهر مرة في الحفيد الذكر، وأخرى في الحفيدة الأنثى.

قبل خمسين عاما تهدمت الدّار الكبيرة، أزيلت إلى الأرض. حتى إنَّ تراب تلك الأرض بُدّل بآخر، وبني مكانه "مول" تجاري، وهو ما تبقى من تلك العائلة، واليوم ماتت آخر حبة في عنقود تلك العائلة الثرية بالمال والأبناء، إلّا أنَّ البحث المستمر لم يجد أحداً قد ظل على قيد الحياة من تلك العائلة سوى "دنيا" التي قضت نحبها قبل دقائق، وزوجها لم يجد عيوناً تبكيها، كان وحيداً، وأعزلاً من كل شيء، لا بكاء، ولا نحيب، ولا عويل.

انتصب واقفاً، مد يديه إلى الغطاء المورد الذي كان يغطي جسمها، كان يفوح منه عطرها المفضل عندها، سحبه إلى رأسها فكأن وجهها قد ارتسمت على شفاهه الصغيرة كشفتي الجدّة العمياء ابتسامة صغيرة، فغطاه كلياً، لقد ماتت ولم يمض على رؤية صورة أبنائها سوى دقائق قليلة. كانت تودعهم الوداع الأخير، اذ كثر طلبها للصورة.

قبل دقائق، كانت تعدّد على أصابع يدي علامات الشبه بين أبنائها وبين خالهم"رياض". وكم أخذ ابنها الكبير من تلك العلامات من خاله، وما العلامات التي أخذها ابنها الأوسط، والأصغر، والابن الرابع. وكانت تبتسم جذلى بما كانت تعدّد من تلك العلامات المتشابهة بين أبنائها وبين خالهم الذي إلى الآن تدعوه بتوأم روحي، ونفسي، وكياني.

حتى خيالها الخصب لم يستطع أن يدفع الموت عنها، أو أن يساعدها في الهرب منه، لتبقى نابضة بالحياة، كي ترى أبناءها الأربعة، وأحفادها، الذين حلمت بلقائهم وهم يحيطون بسريرها الوثير.

لقد طُويت صفحة هذه العائلة التي تأسست بداية القرن العشرين، بنسائها الهاربات مع من يحببن، والأشقاء الذين

يتزوجون الواحد من الآخر، وطُوِيت معها اللعنة، إن كانت هناك لعنة قد حدثت من اجتماع حبال السرة جنباً إلى جنب في قطعة قماش واحدة، كما كان يقول بعض الناس، في حين تنفي وجودها هذه المرأة الميتة، بموت آخر ما تبقى منها على قيد الحياة، إنَّها"دنيا". "دنيا" الصبية. "دنيا" المرأة الناضجة التي كانت تدفع بجدّتها العمياء إلى أن تحكي وتروي لها ولأخيها "رياض" حكاياتها عن أجدادها الأوائل.

***

الفصل الحادي والعشرون

هذا ما تردّد على لساني تلك اللحظة المأساوية وقد تصلّب من شدة المفاجأة التي جاءت مع الحزن على موت أعز مخلوقة لقلبي.

الآن أصبحت مكشوفاً، مكشوف أمام مهب ريح عاصف، وكل شيء قد تصلّب في جسمي، حتى شعر رأسي أخذ بالوقوف والتصلب.

كنت مشوشَ البال، ومضطرب الفؤاد، ومنزوع الإرادة، وفاقد لمن يقودني إلى ضفة أكثر أمناً وصفاءً من الضفة التي وجدت نفسي مقذوفاً فيها كما الآن.

وتابعت الحديث مع نفسي بحزن فقلت: لم أرَ امرأة مثلها زاهدة بالحياة، كان الناس يتشبثون بالحياة كما يتشبث طفل بلعبته، أما هي فلا.

رفعت عن وجهها الغطاء المورد، كان وجهاً يزهو بكل آمال الحياة، وجهاً نضراً تجري فيه دماء الحياة، وتنبض بين تجاعيده الجميلة كل حركات الصبا والجمال، وجه كما ألفته طيلة الفترة المنصرمة، هدوء جماله، وأنس محياه، هكذا تراءى وجهها لناظريّ الكليلين من شدة الحزن.

كنت "أهوش"[1] في الغرفة كالثور التي توالت عليه سكاكين القصابين من كل الجهات ولم تترك له خياراً واحداً للهرب، وبلا وعي مني رحت أردد:

السكينة لروحها الطيبة وهي صبية بسن العاشرة تدرج مع توأم روحها بين والدهما وجدّتهما وهي تستمع لجدتها وما ترويه لهما هي وأخوها، توأم روحها، حكايات عن الأجداد

(١) أهوش: اللفظ مأخوذ من لفظة هأيّشة أيّ البقرة التي تتحرك دائما ولا تستقر في مكان واحد.

الأوائل، كالنواة المقسومة إلى نصفين أحدهما يشبه الثاني ماعدا الحدبة عند "رياض" والشعر الأصهب عن "دنيا".

السكينة لروحها وهي امرأة ناضجة تحفل بنبض الحياة في بيت زوجها مع أطفالها الصغار، ومن ثم أولادها الكبار، الذين أخذوا من خالهم الكثير من الملامح ماعدا الحدبة.

السكينة لروحها الطيبة وهي على فراش الموت، وقد فتحت أمامنا دواليب ذاكرتها، فراحت تحكي ناقلة لنا ذكريات أجدادها الأوائل الذين عاشوا حياتهم بطولها وعرضها.

السكينة لروحها التي فاضت دون أن تنبس بكلمة تفجع واحدة، أو تصرخ من الألم من تلك الذاكرة النشيطة.

السكينة لها بكل هذه الأحوال والمقامات وهي تنقل لنا ما سمعته من جدّتها العمياء، والمبحوحة الصوت، ناقلة عن زوجها الأعرج، السمين، ما كان يرويه عن حب، وعشق، وارتباط والداهما الأشقاء "أنعم" و"أنعام".

صحيح إنَّ الحنين بضاعة الفقراء، إلّا أن ما قدمته زوجتي "دنيا" من حديث عن الماضي، نقلاً عن الجدّة العمياء، ليس حنيناً لِما مضى، وإنما هو تاريخ تنبض فيه حيوات ناس قد مروا في هذه الدنيا وقدموا ما باستطاعتهم تقديمه.

فليست"دنيا" ولا الجدّة العمياء من قسوة القلب وغلاظته أن ينسيا ذلك الماضي ولا يتذكّراه، على الرغم من أنه بعيد عن صنعهم، إلّا إنَّهم من صنعه.

***

بعد لحظات عاد لي ذهني المشوش، وفؤادي المضطرب، وإرادتي المفتتة، بعد أن صفى كل شيء في نفسي من وقع الموت الأسود، انتبهت إلى نفسي، كنت ضائعاً، ويائساً، وحائراً. تساءلت مع نفسي: ماذا أفعل هذه اللحظة، وقد أُثقل قلبي بالهموم والأحزان؟

اتخذت قراري النهائي، سأتصل بأخي الآن، وأخبره بالأمر، فكان ذلك هو ما فعلته بالضبط، وأنا أشعر بالحزن والإحباط من عدم نزول قطرة من الدمع. شعرت أن روحي أصبحت رماداً تذروه الرياح.

وفجأة، وأنا في ذلك الإحباط، واليأس، حل الطوفان، وانفتحت تنانيره، وفاضت عيناي بالدموع، كما تفيض الأنهر، فساح الدمع على خديّ، ونزل فبلل "سترتي" وقميصي، فيما انطلق من حنجرتي صوت صراخي الذي تعالى في الغرفة وخرج إلى الفضاء الخارجي، حيث الحديقة، وخميلة أشجار العنب، والبرتقال، والرمان، فَدّوى كانفجار قنبلة خارج الدّار.

شعرت أنَّ صدري قد توسع، فباتت مساحته الجوفية أكبر من قلبي الذي يحاول أن يتلاشى حزناً، وأكبر من رئتيّ اللتين توقفتا عن تغيير غازات دمي، فطار الاثنان عالياً إلى مكان غير مكانهما وأنا أنشج بصوت مستمر، وبصمت، كالمرأة الثكلى، فقدان "دنيا".

وتفكرت في المصير الذي آلت إليه "دنيا"، فقد سُرقت مني كما يسرق الكحل من العين[1].

نظرت إلى خارج النافذة بعد أن رفعت ستارتها الخفيفة، فكان صوت نباح الكلاب، وعواء الذئاب الذي تخيلته، يأتيان من بعيد. وكانت السماء مازالت تمطر زاخة الماء بقوة، ومزاريب دارنا يجري منها ماء المطر إلى الأرض بشدة خلته شلالاً يرسل ماءه من الأعالي.

اطفأت الإنارة التي تضيء منطقة السرير في الغرفة، وتركت المصباح الصغير الأحمر الذي في "التيبل لامب"[2] المنضدي مضاءً، ورجعت خطوات عن النافذة وسرير الموت.

(١) يسرق الكحل من العين: مثل شعبي. يبين مهارة وخفة السارق.

(٢) تيبل لامب: مصباح منضدي.

كانت باقة الورد التي وضعتها في المزهرية التي أتيت بها صباحاً، قد سقطت على الأرض فانكسرت المزهرية و"تطشرت" ورودها على الأرض بحركة غير مسيطر عليها من يدي التي شعرت بخدر وتنمل يسري في عروقها.

انتبهت إلى أنّي أتراجع إلى الخلف حتى وصلت إلى شيء اصطدمت به فسقطت عليه، كان الكرسي الهزاز هو ما تلقى جسمي، وحافظ عليه كي لا يهوي على الأرض.

انهدَّ جسمي كلياً على الكرسي الهزاز المركون في زاوية الغرفة الشمالية ذات الضوء الخافت، بأعضاء مفككة، وغير مسيطر عليها.

أغمضت عينيّ اللاتي ما زال يسيل منهما الدمع كما الشلال، وقد أحسست بحموضة تغلي في بطني، وحزن شفيف اعتلى ملامح وجهي، وانغرز في نفسي، وتردد في أذنيّ صوت المطربة أم كلثوم، هذه المغنية القديمة، وهي تشدو أغنيتها "دليلي احتار" ومقطع فيها يقول: (أخاف في البُعد توحشني) وعزف القانون الشجي الذي وجدت فيه ذاتي الحزينة، فيما راح الكرسي يهتز من تحتي، أمام، خلف، أمام، خلف.

***

النهاية

في بغداد عاصمة جمهورية العراق، وفي جو صحوٍ، والسماء زرقاء، والشوارع نظيفة، وهي مزدانة بروادها، حيث كل شاب وشابة يمشون سوياً، وقد وضعوا أيديهم على خصر الآخر، أكتب لكم الحصيلة النهائية لعائلة العراقي: مات الجدّ المؤسس لها، ومات الأشقاء"أنعم" و"أنعام"، اللذان حبا بعضهما وتزوجا، وماتت الجدّة العمياء ذات الصوت المبحوح وكأنه يخرج من حنجرة أكلها التبغ، ومات الجدّ السمين الأعرج وقد وجد ممدداً على الأرض قرب السرير، ومات "رياض" أبو حديبة، دون أن يتزوج، وماتت "دنيا" شهرزاد العائلة، وهي آخر شخص مات من هذه العائلة بعد أن نقلت لنا ما حفظته من أخبار عن تلك العائلة. أمّا أنا "فلاح" زوجها فقد بقيت وأخي "صلاح" الذي سيكتب حكاية هذه العائلة التي سمعناها من "دنيا"، على قيد الحياة.

وإذا كانت هذه العائلة، بعد أن تمّ تقشير رأس البصلة وثرم طبقاتها بالمثرمة، تشكل بعض نصف المجتمع، وهو الملعون، فأنا وأولادي وأخي "صلاح" نشكّل بعض النصف الثاني من ذلك المجتمع، وهو المجتمع الخالي من تلك اللعنة.

حزيران ٢٠١٩ ـ ٢١ ت١ ٢٠١٩